لمن الملك ؟

الديب

إسم الــكتاب :لمن الملك
إسم الكــاتــب : الديب
تصميم الغــلاف : عبده وجيه
تدقيق لــغــوي : فاطمة هاشم
رقـــم إيـــداع :19060/2021
تــرقيم دولـــي : 978-977-6925-08-3

شارك سطورك مع العالم

لمن الملك ؟

الديب

The Writer Operation

شارك سطورك مع العالم

الفصل الأول

سهرة عَشاء!

المكان: الطريق المؤدي إلى سرايا عمدة الصعيد.

الزمان: الساعة السابعة والنصف مساء يوم خميس – ١٩٤٧م.

على طريق بين الغيطان خارج القرية، يقطع ظلام الطريق نور أصفر لفانوس عربة سوداء اللون مزخرفة بالذهب، كما يحوم بين الصمت أصوات الأحصنة التي تجر العربة ممزوجاً بصوت الإطارات الخشبية كما يمكن سماع أذان العشاء صادر من مسجد بعيد نسبياً. في داخل العربة يجلس رجل في بدلة سوداء وصديري مشجر باللون الذهبي والأسود. تجلس أمامه فتاة في العشرينات من عمرها مُلَّكة جمال الملكوت. كانت مرتدية فستان سواريه أحمر يلمع كالنجوم في الليالي السوداء. مفتوح من منطقه الصدر. صدرٌ مستدير كالشمس أبيض كالقمر يتموج مع اهتزاز العربة كموج البحر. يجلسان تحت فانوس يحوم حوله بعض الذباب والناموس يهتز بسبب الطريق الوعر.

«الساعة معاك كام؟» قالت السيدة بصوت مبحوح.

أخرج الرجل من جيبه الأيمن ساعة مستديرة فضية منقوش عليها رسومات للمجموعة الشمسية، ضغط الرجل على زر موجود على الجانب الأيسر من الساعة. ثم رد الرجل: «سبعة.» ثم أعاد الساعة مكانها.

-«إنتي كنت بتعملي إيه هناك امبارح.» الرجل للفتاة الجالسة أمامه.

-«هناك فين؟»

-«عند العمدة. في واحد من الخدم قالي إنك كنتي هناك امبارح.»

-"كان عليا دين كنت بسدده."

استغرب الرجل من ردها إذ هو يعرف كل ما للعمدة من أموال وكل ما عليه من ديون. وليس فيهم دين عليها. لكنه لم يرد أن يشغل تفكيره بمعرفة مكانها البارحة كما أنه لا يريد أن يشغل باله بسبب بحّه صوتها.

-"هو إيه سر العزومة دي يا حبيبي؟" الفتاة بصوت مبحوح.

-"ولله يا حبيبتي منا عارف. أنا صحيت على العصرية لاقيت جواب مكتوب فيه إن العمدة عازمني على العشا. بس إنتي إيه اللي خلاكي تيجي معايا المشوار ده؟"

"طب ليه مأجلتهاش عشان متلغيش معادك مع السمسار دا يوم الخميس ده أنسب يوم ليك عشان تشتري المينا؟" سألت سؤالها وهي تبعد الناموس من وجهها.

-"أولاً أنا مش هشتريه أنا لسه بفكر. ثانياً مش عايز العمدة يحس إني مشغول. عشان لو حس هيدور ورايا، ولو دور ورايا هيعرف إني بفكر اشتري المينا بتاع الإسكندرية وامشي. ولو عرف هيفضل يمسك فيا. إيه بقى اللي خلاكي تصري انك تيجي معايا المشوار ده؟"

ردت ضاحكة: "انت مش خايف يمسك فيك انت خايف يمسكك."

نظر لها بغضب فأكملت بصوتها المبحوح وبطريقة نسونجية: "انت مالك خايف منه قوي لي كده؟ انت التاجر اللي في جيبه سوق الصعيد كله. يا جدع دا انت أغنى من الملك ذات نفسه. مفيش أي حد من ملاك الأراضي يعرف يبيع

كيلو فاكهة واحد غير لما توافق ولا في فلاح يعرف يشتري جاموسة غير لما إنت تعوز دا إنت يا شيخ اللي بتصرف مرتب كل واحد في الصعيد بإيدك، إيه اللي مخوفك من العمدة؟"

أخرج التاجر علبة تبغ مصنوعة من الفضة كما أخرج غليون وولاعة ليدخن. وبدأ يضع التبغ في الغليون وهو يقول: "إحنا كبرنا مع بعض. أنا كنت بمول له حملاته وبدفع له رشواته. وأهم حاجة كنت بساعده عشان يهرب سلاح من ورا الإنجليز عن طريق اني كنت بدفع رشاوي."

-"إنت اللي دفعتله كل الرشوات ومولت كل الحملات! طب ما كدا كان زمانك إنت العمدة؟!"

-"وأنا هستفيد إيه لو بقيت أنا العمدة. لو أنا بقيت العمدة مش هعرف أدير المشاريع أو حتى أتابع الحسابات. أنا مستريح كدا."

حينها بدأ يضع بعض الحشيش وأشعل الولاعة الذهبية التي أخرجها من أحد الجيوب المخفية في البدلة.

-"طب ايه يعني ما انت طلقت أمي عشان تتجوز أختي الكبيرة وهو اللي أمر شيخ البلد انه يكتب كتابكوا مع انه مكنش موافق عشان حرام، وبعد كدا سبت أختي عشان تتجوزني وبرضه أمر شيخ البلد انه يكتب كتابنا وبرضه شيخ البلد مكنش موافق عشان مكنش في سبب للطلاق."

-"إيه اللي جاب دي لدي؟ انتي إيه اللي خلاكي تيجي توصليني أساساً؟"

-"قصدي هو بيعمل اللي إنت عايزه حتى لو ضد رأي الشيخ. وإنت عارف يعني

إيه يعترض على رأي الشيخ."

-"اكيد عارف. والشيخ على فكرة من الأسباب الرئيسية اللي بتخليني عايز أمشي. كل ما أحاول اعمل حاجة كدا ولا كدا ألاقيه عرف بطريقه سحرية وجاي يقولي حرام. مش بس كدا كل ما أركز في مشروع ممكن يخلي الصعيد دي زي القاهرة ألاقي الناس جاية عايزة فلوس عشان العيد جة ولازم يضحوا بنص البهايم ولا عدى سنة وعايزين يطلعوا الزكاة بتاعتهم."

ردت وهي تبعد الناموس من وجهها: "طب متعملها. هو ماله؟"

-"انتي غبية أوي. بعد أقرب صلاة جمعة هلاقي مظاهرات فيها الفلاحين كلهم وشويه ملّاك أراضي كمان ومش بعيد تلاقي كام واحد إنجليزي معاهم جايين عايزين يمشوني أو يقتلوني أيهما أسهل."

"طب ما تخلي العمدة إيه المشكلة؟" قالت السيدة.

-"ده يمشيني أنا والعمدة."

-"بشوية فلاحين! اقتلوهم دول بيعملوا ثورة عليكوا."

قال وهو يبعد بعض الناموس من وجهه: "لا مش بالفلاحين، بشيخ الأزهر."

-"وهو ماله ومال شيخ الأزهر؟ وشيخ الأزهر ماله ومالكوا؟"

-"بصي، بغض النظر إذا كان الملك كويس ولا لأ بس هو مش عاجبه وجود الإنجليز في المملكة. ودلوقت هو الوقت المناسب عشان يحاول يمشيهم. لأن دلوقت هم في حالة ضعف شديدة جداً لأنهم لسه طالعين من حرب عالمية.

ودلوقت المملكة المصرية أغنى بكتير من بريطانيا ووضعنا الاقتصادي أقوى منهم بكتير عشان كدا معظم البياعين والحلاقين أجانب من بريطانيا وأسبانيا. طبعاً الملك أول ما مسك الحكم كانت بريطانيا مشغولة بحربها ضد ألمانيا.

قدر الملك إنه يطردهم من القصر الملكي ولأ وكمان يمشيهم من معظم المحافظات عشان سكينة الحرب كانت وخداهم. وطبعاً عشان يمشيهم محتاج ناس يثق فيهم. والوحيد اللي أي ملك مصري يقدر يثق فيه هو شيخ الأزهر لأنه المنصب الوحيد اللي مش سياسي. يعني شيخ الأزهر مش بيكون ليه سلطة قضائية أو نفوذ فمحدش بيطمع فيه. خاصةً إن شيخ الأزهر الحالي أثبت إنه صاحب موقف واحد طول الوقت وقف ضد الإنجليز في حاجات كتير لا ومش بس كدا شيخ الأزهر كان الوحيد المعترض على اللي كان بيحصل في أم الملك عشان كدا الملك بيحبه من غير حاجة أصلاً. فالملك إداله صلاحيات عشان يرجع الدين للبلد. وشيخ الأزهر بقى بيثق ثقة شديدة في شيخ البلد مش عارف ليه. شيخ الأزهر بيعزموا كل شهر تقريباً على الغدا هناك في القاهرة. ودايماً بيحجوا مع بعض. مع إن الإتنين مش قد بعض في السن. يعني صعب جداً يكونوا أصحاب أو....."

قاطع التاجر الوقوف المفاجئ للعربة. تقلبت ملامح التاجر حزناً. فهو لا يتكلم إلا قليلاً. إذ غالباً ما يكون مشغول في الحسابات والماليات. نزل التاجر من العربة وساعدته السيدة على ارتداء البالطو ونظر لعينيها الحور الكحيلة ليذوق خمر عينيها الذي لا يسكر بعده سواه، وبعد ثانيتين مرّوا عليه ساعات، التف ليجد نفسه أمام طريق طوله خمسين متراً في آخره بوابة حديدة ضخمة على جانبيها مصباحان زيتيان ضخمان. وسور طويل ممتد إلى حيث ينتهي ضوء

المصباحان ثم يغوص في الظلمات. يقف أمام البوابة غفيران كلاً منهما مرتدي عباءة وعلى رأسه عمامة وعلى كتفه بندقية وفي أنف الغفير الواقف على يمين البوابة قطعة قطن يداوي بها إصابة، والأخر كانت عينه اليسرى مفقوعة تحت قطعة من القطن والشاش. يمكن لمن يراها أن يميز أنها حديثة الفقع، وخلف البوابة اثنان مثلهما ليصبح عدد حراس البوابة الرئيسية أربعة.

مشى التاجر في اتجاهها بعد أن ألقى التحية على زوجته. ما لبث أن رأه الذين خلف البوابة حتى فتحا له البوابة ليدخل.

-"انتوا بس اللي هنا؟" سئل التاجر.

-"إيوه." أجاب أحدهما.

صاح التاجر: "يعني انتوا عارفين إني جاي ومتشددوش الحراسة؟ واحد فيكوا يروح ينادي شيخ الغفر حالاً."

حينها أخذ الغفير ذو العين المفقوعة فانوس زيتي وركض ليحضر شيخ الغفر بينما أكمل التاجر سيره داخل السرايا. تحفة كلاسيكية. حيث يمتد طريق من بلاط الأنترلوك مرصوص على طرفيه أعمدة قصيرة عليها فوانيس، بعد كل ثلاث أعمدة من كل جانب يوجد كنبة رخامية صغيرة. مرصوص على جانبي الطريق أشجار من نوع البونسيانا تظلل على من يمشي تحتها نهاراً ناهيك عما خلفها من أشجار تشعر من يراها أنه في الأدغال. تتردد في مسامع المكان أصوات الصراصير ممزوجة بصوت صرير الرياح تداعب فروع الشجر يعزفان سيمفونية من نشازها تريح الأعصاب. رويداً يظهر صوت نافورة في المقدمة قبل أن يصل لها التاجر. نافورة ضخمة مرصوص حولها مصابيح كهربائية صفراء. استتر خلفها باب كبير

مزخرف بالأرابيسك وعلى جانبيه يقف غفيران. يفتحان له الباب ليدخل على بيت مليء بخشب الزان في كل مكان كما أنه مليء بالمصابيح الكهربائية التي كانت إضاءتها ضعيفة نسبياً. وصمت لا يقطعه إلا صوت مجهول المصدر لامرأة تغني موسيقى الأوبرا الشهيرة. صوتها خافت يخرج من إحدى الغرف البعيدة التي طبعاً يصعب تحديد مكانها في وسط هذه المتاهة.

تمشي ناحيته شغالة مرتدية عبائه سوداء وطرحة كبيرة تصل لكتفها. جاءت لتأخذ منه البالطو الذي كان يرتديه.

«أكبر حرامي فيكي يا صعيد. الريحة بتاعتك جايبة لأخر القصر.» صاح بها رجل مبتسم يرتدي بدلة رمادية تحتها قميص أبيض. يمسك في يمينه عصاة طولها متر ونصف مصنوعة من الفضة المزخرفة وفي أعلاها حجر ياقوت طبيعي كبير. بشرته بيضاء لم ترى الشمس قط. وكان هناك جرح حديث أعلى حاجبه الأيمن.

«أغشم واحد في الصعيد.» رد عليه التاجر بضحكة كبيرة قبل أن يفتح ذراعيه ليحتضنه.

همس العمدة أثناء العناق: «إنت شارب حشيش قبل ما تيجي؟»

رد التاجر هامساً: «يدوب نفسين. انت عينك مالها؟»

-«وقعت من السلم.»

حينها دخل أحد الغفر عليهما. وظل واقفاً حتى يفرغوا من العناق. وبعد أن انتهوا من السلامات.

-"إنت إيه اللي جابك؟" قالها العمدة.

-"شيخ الغفر جه".

-"طب وإيه اللي جابه؟" تسائل العمدة.

-"أنا اللي طلبته" قال التاجر.

-"ليه؟" قالها العمدة ومشى في نفس إتجاه صوت تلك المرأة التي تغني فتبعه الغفير والتاجر.

-"عشان يشدوا على الحراسة. إحنا أهم اتنين في الصعيد. وموجودين فمكان واحد لازم يكون في حراس كتير. صحيح محدش يعرف إن إحنا هنتقابل. بس الإحتياط واجب."

قال العمدة: "معاك حق. جالي كلام إن الخُط في القرية اللي جمبنا."

-"نعم ؟!"

-"متقلقش أنا بعت تقريباً كل الغفر عشان يدوروا عليه ومأكد عليهم محدش منهم هيروح بيته غير لما نروح أو حد يقتله. ده غير إن مش أهم إتنين، إحنا أهم تلاتة."

استغرب التاجر لكنه لم يتكلم بعد ما قاله حتى لا يظن العمدة أنه يتعمد أن يقلل منه.

التفت العمدة للغفير: "هو واقف برا؟"

-"إيوه يا سيادة العمدة."

-"دخله." قال العمدة.

دخل رجل وسيم جداً في العشرينات من عمره. مرتدي بدلة ضابط زيتية اللون كما يظهر المسدس ضخم من سميث آند ويثون -كالمرسوم على غلاف الرواية- لونه فضي.

قال شيخ الغفر: "تأمر بحاجة يا عمي؟".

-"فاضل كام غفير؟"

-"عشرين بالظبط."

-"خلاص هاتهم وحطهم حوالين السرايا..... بس إيه رأيك في المسدس اللي أنا جبتولك."

أخرج شيخ الغفر مسدس فضي متوسط الحجم من جيبه منقوش على جانبه الأيمن نجمه ذهبية، وقال: "جميل جداً ولله."

-"بس إيه رأيك الألوان ماشية مع بعضها إزاي..... وإنت مجبتلوش جراب لي؟"

-"ملحقتش لسه والله يا عمي. إنت يا دوب لسه جايبهولي امبارح."

-"خلاص اعمل اللي أنا قلتلك عليه."

أشاح له العمدة بالإنصراف، فانصرف شيخ الغفر.

-"إنت قلت أهم تلاتة! هو في حد تاني جاي؟"

قال العمدة: "لأ."

قال التاجر مازحاً: "أومال في حد فينا حامل يعني ولا إيه؟"

لم يبتسم العمدة وقال شبه عابس: "لا مش هييجي. هو خلاص جه."

حينها وصلا إلى غرفة طولها عشرين متراً ومثلهم عرضاً، وسقفها طوله أربع أمتار ونصف. خشبية الجدران رخامية الأرضية. مليئةً جُدرانُها بالمصابيح. بها ثلاث نوافذ زجاجية طولها ما يقارب المترين يوجد في المنتصف طاولة سفرة طويلة مرصوص عليها ما يقارب الأربعين كرسي مطلي بالذهب إن لم يكن كله من الذهب. وطاولة السفرة كانت أرجلها من الزان والباقي كان من الرخام. موضوع عليه طبقة من الزجاج الملون برسومات باللون الأزرق بعضها رسومات لأسماك وبعضها لسفن بحرية. يقف خلفها وأمام إحدى النوافذ رجل هزيل الهيئة ضعيف البنية، يرتدي عبائه بنية وعلى رأسه عمامة المشايخ، ينظر للنافذة والسبحة حديدية- التي كانت تصدر صوت الطرقعة- في يمناه مشبكاً يداه خلف ظهره يسبح الله على جمال ما يراه من شجر وورد. كما يوجد في الزاوية اليسرى فونوغراف أو كما يسميه البعض جرامافون عليه إحدى تلك الأسطوانات السوداء الكبيرة واللي كان مصدر صوت تلك المرأة التي كانت تغني.

-"الشيخ؟!" قالها التاجر.

التفت الشيخ فقال التاجر بابتسامة صفراء: "ازيك يا مولانا."

رد الشيخ: "وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته"

قالها وهو يتجه لهما فرد التاجر عليه السلام. أشار العمدة بيده ليجلسا على كراسي السفرة، جلس العمدة على مقدمة السفرة على يمينه الشيخ وعلى يساره الشيخ.

قال الشيخ مبتسماً بعد جلوسه: "إيه المناسبة السعيدة اللي خليتكوا تعزموني دلوقت واسيب صلاة العشاء؟"

تقلبت ملامح العمدة قليلاً قبل أن يقول التاجر: "هو عزمك على غفلة كدا زيي؟"

قال الشيخ: "هو بعت واحد من الغفر قبل الصلاة بخمس دقايق وقالي لازم تيجي حالاً."

قال العمدة: "العشا يا شيخ، أنا عازمك على العشا. مش النبي(صلى الله عليه وسلم) قال: "إذا حضر طعام العَشاء قبل العِشاء فابدأوا بالعَشاء قبل العِشاء." صح ولا إيه؟"

-"إذا كان كدا بقى. فين الأكل؟" قال الشيخ مبتسماً إذ هو فعلاً جوعان.

ما لبس أن قالها الشيخ حتى جاء الخدم بالطعام ووضعوا الطعام على الطاولة. وُضِع عليها بموجز الوصف المحمر والمشمر. ثم شرعوا جميعا بالأكل.

"طب مين اللي أمّر بالناس في الصلاة طالما انت هنا؟" سئل العمدة وهو يأكل.

رد الإمام وهو يأكل: "ابني."

قال التاجر: "ابنك!! بس ده الصغير."

-"اتناشر سنه مش صغير.

ده غير إن هو كسب مكانة كبيرة بين الناس في الفترة الأخيرة بالذات. دلوقت الناس بقيت تخليه هو اللي يصلي بيهم وأوقات يخبط صلاة الجمعة لما بسافر القاهرة."

نظر كلاً من العمدة والتاجر لبعضهما كأنهما يقولان لبعضهما "احا".

-"دلوقت بقى يخالفني في الأحكام." قالها الشيخ وهو شارد الذهن.

-"يعني إيه؟"

-"يعني بقى ليه رأي في حاجات في الدين مخالفة لرأيي."

-"إزاي يعني؟" سئل العمدة محاولاً.

-"مثلاً هو بيقول إن دلوقت يجوز للمرأة انها تحط مسك طالما هي في مدينة زي القاهرة أو اسكندرية على أساس إن المرأة بتخرج كتير يعني وكدا. لكن في القرى والمدن فحرام عليها تحط مسك لأنها مش بتشارك زي القاهرة وإسكندرية. لا ولو في قرية بس الستات بتتحرك فيها كتير أو بتشارك في حجات كتير برضوا يجوز ليها تحط مسك."

هز كل من العمدة والتاجر رأسهما كأنهما فهما ما قاله الشيخ قبل أن يقول التاجر: "لحظة.... إي دا هو حرام؟".

-"هو كان حرام. لكن الواد بيقول إن الزمن اتغير. بس أنا شايف إن الصح إن هو يكون فعلاً حرام."

قال العمدة: «طب ومين الصح؟»

-«مش عارف.» الشيخ.

التاجر: «مش عارف! أومال مين؟»

-«الحاجات اللي مش موجودة في الكتاب ولا السنة زي دي بيبقى ليها أراء. واللي بيقول الآراء دي بيكونوا علماء في الدين لأن إحنا مش في زريبة أي حد معدي يقول اللي هو عايزه. كل عالم بيقول رأيه اللي بيكون مبني على أدلة من القرأن أو السنة أو مقارنات بين الحاجة دي وحاجة تانيه ليها دليل أو تشبيهات أو عُرف أو حتى منطق المهم أي حاجة يؤيد بيها رأيه مش أي هبل في الجبل. وساعتها الناس بتختار الرأي اللي بيشوفوه مناسب أو يحسوا إن هو صح. بس كدا.»

«مممممر» قالها العمدة والتاجر معاً. وبعد مرور خمس دقائق من الأكل المتواصل والاستماع للأوبرا الهادئة قرر التاجر أن يكسر الصمت قائلاً: «فاكر أول يوم جيت فيه من سنتين.».

قال العمدة بحماس: «وده يوم يتنسي. كانت الدنيا ممطرتش من أول السنة لحاد ما إنت جيت في أول يوم وصليت بينا صلاة العيد والدنيا فضلت تمط...»

قاطعه الشيخ: «استسقاء.»

نظر له العمدة وقال: «....معلش مسمعتكش؟»

قال الشيخ: «اسمها صلاة استسقاء.»

قال العمدة: «آه معلش. صليت بينا الاستسقاء والدنيا فضلت تمطر ست أيام ورا بعض. لأجل الحق أنا مكنتش مقتنع إنها هتمطر أنا كنت شايف إن ده هبل. ليه يعني كل واحد يطلع بالجواميس وماله وحاله ومحتاله. الصراحة أنا حتى مصلتش...»

قاطعه الشيخ: «الدنيا ممطرتش عشانك. ومكنش فارق إنك تصدق أو لا.»

-«لي؟»

-«عشان ربنا مكنش بيبصلك ساعتها.»

قال التاجر: «اه. تقصد إننا مش مهمين؟»

قال الشيخ: «ربنا كان منزل المطر عشان الناس اللي كانت بتدعي من قلبها، لأن الدنيا لو مكنتش مطرت كان هيتخرب بيوتها.»

اعتدل الشيخ في جلسته ونظر للتاجر قائلاً: « (إن أقربكم عند الله أتقاكم) يوم القيامة إنت هتحسب إن الناس هترحب بيك زي ما بيرحبوا بيك دلوقت، أو هيعملولك حساب. بس ده مش هيحصل. ودا معنى قوله تعالى (خافضةٌ رافعة) فأنت لو شخص مشهور مثلاً إنت هتكون منتظر إنك تكون برضو مشهور في الأخرة لكن دا مش هيحصل يعني مثلاً مش هتلاقي الناس بتدور على فرعون أو أبو لهب لأن بمنتهى البساطة مش هيكون حد عارفهم. لا وكمان في الكفة التانية ممكن تلاقي مثلاً واحد من الغفر اللي انت بتزعقلهم أو واحد من الفلاحين اللي بتهينوهم ليه ترحاب أكبر منك بكتير.»

قال العمدة: «وإنت بقى هيرحبوا بيك يوم القيامة؟»

قال الشيخ مبتسماً: «أنا مقلتش انهم هيرحبوا بيا يوم القيامة.

أنا حتى مش عارف إذا كنت هخش الجنة ولا لأ. مفيش غير العشرة المبشرين بالجنة هما المتأكدين من أنهم هيخشوا الجنة.»

قال التاجر: «طب ادعلنا نكون منهم بقى.» وانفجرت ضحكة عالية وكان مصدرها التاجر. حتى لاحظ التاجر أن العمدة والشيخ ليسا حتى مبتسمَين، فتلاشت ضحكته تدريجياً وعاد لما يجيده جيداً (الأكل).

«إنت قلت إنت منين يا مولانا؟» سئل العمدة.

-«اعتقد إنت عارف أنا منين.» الشيخ مبتسماً.

- «أنا سألتك سؤال.» العمدة بحزم.

-«أنا من القاهرة.»

قال التاجر محاولاً أن يهدئ الوضع: «وانا كمان يا شيخ.»

-«وإنت كمان إيه؟ من القاهرة!»

-«أنا كمان سيبت حاجة مهمة عشان أحضر العشا ده. عارف ايه هي الحاجة المهمة؟»

ظل الجميع صامت ناظرين له بدون أي كلام لمدة عشر ثواني بينما التاجر يبتسم منتظراً أن يسئله أحد عن الحاجة المهمة. إلى أن رد التاجر على نفسه قائلاً: «في حفلة جديدة للست كانت هتتذاع لأول مرة على الراديو كنت هموت واسمعها؟»

بدأ التاجر بالضحك لبعض اللحظات إلى أن لاحظ أنه لازال هو الوحيد الذي يضحك.

الفصل الثاني

وجهات، نُظر؟

بعد مرور خمس دقائق من الأكل على الأغاني وموسيقى الأوبرا.

سأل العمدة: "انتوا متابعين سياسة؟"

التاجر: "أكيد."

الشيخ: "يعني ... كلابي كدا."

العمدة: "طب سمعتوا عن حوار بيحصل في الخباثة كدا..... إسمه إسرائيل."

التاجر: "طبعاً. وربنا يجيب العواقب سليمة."

الشيخ باستغراب: "إسرائيل؟!"

-"شيخ الأزهر مقلكش ولا ايه؟" قالها التاجر مبتسماً.

قال الشيخ: "لأ."

توقف العمدة عن الأكل قائلاً: "أمريكا وبريطانيا بتفكر تعمل دولة اسمها إسرائيل وتكون موطن لليهود، ودا طبعاً عامل قلق."

الشيخ: "قلق؟! طب وإيه المشكلة ميعملوا طالما مش ناويين يشتروا من مصر."

التاجر: "يشتروا إيه؟"

-"يشتروا أرض يبنوا عليها الدولة. هما اليهود حوالي عشرين مليون بالكتير يعني."

صمت التاجر والشيخ للحظةٍ قبل أن ينفجرا من الضحك، وبينما الشيخ غير مستوعب سبب السعادة المفاجئة قال التاجر الذي احمر وجهه من الضحك:

«دا عايز أمريكا وبريطانيا يشتروا.»

وبعد انتهاء الضحك. قال العمدة: «هيخدوها.»

قال الشيخ: «كدا! بالسهولة دي.»

نظر التاجر للعمدة وقال: «الإشاعات اللي وصلالي إنها هتبقى في القدس.»

العمدة: «أنا مكنتش اعرف دي. إنت عرفت منين؟»

التاجر: «في واحد يهودي غني جداً في أمريكا هو اللي ضاغط عليها. وبيستغل مصدر من الديانة الإسرائيلية عشان يدعم بيها رأيه.»

-«ضاغط على مين؟!» سئل الشيخ بتعجب واستنكار.

التاجر: «على أمريكا.»

الشيخ: «مين اللي ضاغط عليها؟»

التاجر: «واحد يهودي غني.»

الشيخ: « بيعمل إي في أمريكا؟»

توقف التاجر عن الأكل ليشرح للشيخ قائلاً: «هو بيهدد أمريكا إن هو ممكن يسحب فلوسه من البنوك، ولو انت مش عارف واحد بكمية الفلوس الضخمة دي لو سحب فلوسه مرة واحدة هتبقى مصيبة.»

رد الشيخ: « أنا لسه مش فاهم. دا طبيعي؟»

أراد التاجر أن يشرح أكثر لكن العمدة قاطعه قبل حتى أن يتحدث قائلاً: " انت كنت تعرف إن التاجر اللي قاعد قدامك ده ليه شلن في كل بريزة بتتحرك في الصعيد. إنت متخيل؟ كل بريزة داخلة للصعيد أو خارجة منها، كل بريزة بتتصرف كمرتب لموظف. كل حاجة انت بتشتريها من أي دكان التاجر ليه فيها نصها."

دلدل فم الشيخ مما سمع ثم نظر للتاجر الذي كان يأكل بينهم كما لو لم يكن الكلام عليه.

أكمل العمدة: " طبعاً الكلام ده كله بفضلي عشان ساعدته في حاجات كتير جداً لكن ما علينا. تخيل بقى لو التاجر مشي مرة واحدة. مرة واحدة كدا قال أنا هاخد فلوسي وهمشي. تفتكر إيه اللي هيحصل؟"

الشيخ: "والله أنا شايف إن...."

العمدة مقاطعاً الشيخ: "كل حاجة وحشة. أولاً مرتب كل موظف في الصعيد كلها هيقل للنص. مش بس كدا البضاعة اللي في المحلات برضوا هتقل النص. وكل حاجة الناس بتشتريها هتغلى الضعف. وبمعنى أخر الناس هتتفقر."

اتسعت عين الشيخ واشتبك حاجبيه ثم نظر للتاجر الذي كان غير مبالي لما يقال ولايزال يأكل حتى كانت الملعقة أن تصيح.

أكمل العمدة: "الفقر هينتشر، الناس هتجوع. وبعد كدا يثوروا عليا. قال أي يعني كدا هيحلوا المشكلة. فاكرين انهم بعد ما يمشوني التاجر هيرجع ويوزع عليهم فلوس."

هز الشيخ رأسه بعد أن فهم ما يقوله.

نظر العمدة للتاجر وقال: "عشان كدا التاجر مش هينفع يمشي..... غير على جثتي."

توقفت الملعقة أمام فم التاجر للحظة ثم عاد للأكل مرة أخرى كما لو لم يسمع شيئاً.

قال العمدة: "دا غير إن أنا متأكد إن أمريكا مش مستنيه ضغط من الواد اليهودي دا."

الشيخ: "أي دا؟"

العمدة: "فرد سيطرة... إنك تاخد حاجة من حد بالقوة دا يعتبر أقوى صورة للسيطرة."

هز التاجر رأسه مقتنعاً بما قاله العمدة قبل أن يكمل العمدة: " بس هيكون مكلف."

هز التاجر رأسه مرة أخرى قبل أن يكمل العمدة: "عشان كدا ف حل تاني."

همهم التاجر مستغرباً.

نظر العمدة للشيخ وقال: "انك تقنعه انه يديهالك."

لم يكن الشيخ غبياً يعلم أنه يرميه بالكلام لأنه قادر على اقناع الناس بأي شيء حتى وإن كان أن يأخذ منهم كل أموالهم. تبادل الشيخ والتاجر نظرة تنطق بما

يخشى أي منهما قوله.

«أو إنك تشتريها منه.» قال التاجر وهو يأكل غير ملاحظ لتلك النظرة.

هنا تذكر كلاً من العمدة والشيخ وجود التاجر من الأساس، ثم أدركوا اقتراحه.

قال العمدة: "فعلاً. إنت لو اشتريت الحاجة دا معناه انك أخدتها منه."

أكمل التاجر: "بس دا غباء. كدا هيبقوا مكروهين جداً من اللي حواليهم خاصة إن هما هنا في الشرق الأوسط."

"ربنا يحمينا من الفتنة." قال الشيخ.

قال العمدة: "طبعاً الحرب خراب علينا كلنا."

الشيخ: "لا أنا مش قصدي على الحرب. أنا قصدي على الفتنة مبين اليهود والمسلمين."

توقف كل من العمدة والتاجر عن الأكل ونظرا للشيخ باستغراب، فعرف الشيخ انه عليه أن يشرح أكثر. هنا هدئت الأوبرا كما لو أنها تعلم أن الشيخ سيتحدث.

أكمل الشيخ: "أنا مليش دعوة بس لو انتوا عايزين رأيي ... أولاً إسرائيل دي مينفعش تكون موجودة، لأن هيا كدا هتكون دولة مبنية على دين ودا غلط. يعني هتبقى الجنسية بُناءا على ايه؟! الديانة مثلاً، الدنيا مش كدا. الدول بتكون موجودة وبعد كدا بيكون أغلب الناس بتتبع دين معين فالدين دا بيكون دين سائد وبالتالي الدولة دي بتكون تابعة للدين. تعالوا ناخد الإسلام للحظة... السعودية مش مقر الإسلام ولا حاجة. لأن الإسلام زي الفكرة مينفعش تربطه بمكان. ثانياً وفي حالة أن إسرائيل فعلاً وجِدَت، فأنا أتوقع إن يكون في فتنه. لأن زي منا شرحت انك يهودي دا غير انك تكون إسرائيلي. النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (ألا مَنْ ظلمَ معاهدًا أوْ انتقصَهُ أوْ كلَّفَهُ فوقَ طاقتِهِ وأخذَ مِنهُ

شيئًا بغيرِ طيبِ نفسٍ فأنا خصمُهُ يومَ القيامة.). أنا بقى أتوقع إن المسلمين يخلطوا بين اليهود والإسرائيليين.

ويكرهوا اليهود على انهم إسرائيليين. ويوم القيامة نلاقي الرسول خصيم نص المسلمين ومحدش يعرف السبب. دا غير طبعاً في نتيجة عكس كدا تماماً وهي ان أناس تتعامل معاهم عادي ويقولوا (لكم دينكم ولي دين). ويتعاملوا مع الإسرائيليين على انهم يهود. وانا متأكد إن في يهود هيقفوا قصاد إسرائيل ويدعموا المسلمين والعرب."

رُفعت الحواجب ودلدلت الأفواه من الشيخ ورؤيته البعيدة جداً والفريدة للأمور. ثم بدأوا بالأكل تدريجيا.

قال التاجر: "إحنا ممكن نسمع الحفلة هنا؟"

العمدة: "حفلة إيه؟"

الشيخ مبتسماً: "حفلة الست."

صمت العمدة لحظة ليستوعب سخافة الطلب قبل أن يقول: "نخلص الأكل وهشوف."

بعد مرور خمس دقائق من الأكل قرر التاجر أن يكسر الصمت.

"انتوا عارفين المشروع المهم فعلاً هيكون ايه؟" قال التاجر.

نظر العمدة والشيخ للتاجر لمدة عشر ثواني ليكمل كلامه، إلى أن رد على نفسه قائلاً: "مشروع الإصلاح الزراعي."

قال الشيخ باستغراب: "إيه مشروع الإصلاح الزراعي ده؟"

قال العمدة: «انت متعرفش حاجة خالص كدا!»

رد الشيخ: «وانا مالي بكل ده؟، الكلام ده عليكوا انتوا.»

قال العمدة: « هنوزع الأراضي ونأمم الشركات.»

قال الشيخ: «أنا مفهمتش حاجة، دا طبيعي؟»

قال التاجر: «لو إنت عندك شركة متبقى بتاعة المملكة ولو إنت عندك ألف فدان مثلاً المملكة هتاخد منك سبع مائة توزعهم على الفلاحين وتسيبلك الباقي. بس مش عارف هم راكنينه لي؟»

الشيخ: «أي دا. دا الموضوع كبير.»

قال العمدة: «مش عارف بس الموضوع دة سلاح ذو حدين؟»

التاجر: «تقصد ايه؟ أنا شايف إن دي حاجة كويسة أوي.»

الشيخ: «إزاي؟»

أخذ التاجر نفسا عميقاً ليشرح: «لما الفلوس تبقى مع عدد قليل من الناس، الناس دي بتشتري اللي نفسها فيه بيوت بقى وعربيات وبدل وكل حاجة نفسهم فيها وبيتبقى فلوس أكتر بكتير من اللي هو صرفه، فبيحوش الباقي. غيري أنا، فأنا مثلاً اللون الدهبي اللي في الصديري بتاعي دة دهب حقيقي والساعة بتاعتي فضة نقية والنجوم اللي عليها بتمثل الشمسية بتاعتنا فعلاً. طبعاً مش عايز أتكلم عن العربية والدهب اللي عل....»

-"إنت عايز تقول إيه؟" قاطعه العمدة سائلاً.

أكمل التاجر بحماس: "معلش اتحمست بزيادة. الفكرة إن مفيش غير ملّاك الأراضي والبشوات بس هم اللي بيشتروا، بيشتروا بدل يلبسوها وبيشتروا عربيات يركبوها وبعد كدا يتبقى معاهم فلوس كتير. الفلوس دي هم بيحوشوها مش بيصرفوها زيي. لكن لو وزعنا الفلوس دي على ناس أكتر، الناس الأكتر دول هيشتروا بِدل وعربيات إلى أخره. ودا هيفيد التجار والشركات والمصانع بشكل كبير جداً جداً جداً."

"مممممر" قالها العمدة والشيخ معاً. في نفس الوقت الذي سقف فيه الجماهير لمغنية الأوبرا.

قال التاجر ملتفتاً للعمدة: "إنت بقى كان قصدك إيه بسلاح ذو حدين."

أخذ العمدة نفس عميق ليشرح: "لو الفلاحين خدوا أراضي كتير فده ممكن يأدي لي إنهم يحسوا بأهمية نفسهم ويبدأ يكون ليهم رأي. طبعاً انتوا ممكن تتخيلوا اللي ممكن يحصل بعد كدا بسهولة. من ثورات على المسؤولين أو حتى انهم يقرروا انهم يكون ليهم مناصب إدارية..... وانت إيه رأيك يا مولانا."

قال الشيخ: "أنا شايف إن الكلام ده حرام. وكان في حاجة زي كدا في أول الإسلام بس مش عارف انتوا هتشوفوا وجه الشبه ولا لأ."

صمت العمدة والتاجر لا يعلمان ما يقولانه، إلا أن أخذ الشيخ نفس عميق ليشرح: "الإسلام بيحب فكرة العبودية ولا لأ؟"

صمت الشيخ منتظراً إجابتهم، لكن لم يجبه أحد إلى أن أجاب:

«لأ... الإسلام مش بيحبها. بس محرمهاش. عشان دا حق للي اشترى العبد. يعني الإسلام مينفعش يروح يحرر كل العبيد على طول، لأن العبد ده في حد اشتراه وبكدا العبد ده ملك للسيد اللي اشتراه، وحتى لو كانت فكرة العبودية دي أسوأ حاجة في حق البشرية لكن لو الإسلام فعلاً حرم العبودية وأمر كل السادة انهم يحرروا العبيد فدا معناه إن الإسلام تعدى على أملاك الأسياد اللي عندهم عبيد وأخدها غصب عنهم. بس الإسلام عمل حاجة أفضل من كدا بكتير وهي إن أمر الناس بتحرير العبيد بطريقة غير مباشرة ودا عن طريق انه خلى بعض الحدود والكفارات تكون عن طريق تحرير العبيد. لدرجة انها وصلت إن السيد لو ضرب العبد بالقلم على وشه واجب عليه ان هو يحرره. دا غير إن ربنا عمل ثواب كبير للشخص اللي هيحرر عبد. مش عارف بقى انتوا شايفين وجه الشبه ولا لأ. بس أنا شايف إن وجه الشبه كبير. إن الأراضي ولو ان المفروض انها تكون للمصريين كلهم، بس لو المملكة عملت المشروع ده والملك فعلاً وافق فدا معناه انه بياخد الفلوس غصب من الملاك.»

ذهل كلاً من العمدة والتاجر مرة أُخرى من وجه نظر الشيخ الفريدة جداً من نوعها. استمر الأكل لبضع الدقائق إلى أن أخيراً انتهوا من الأكل. ذهبوا ثلاثتهم للحمام. واللحظة التي دخلوا فيها كان الشيخ مستغرب من العمدة إذ أن الحمام كبير، كل الحوائط رخام، به خمس أحواض كبيرة أمام كل واحد مرآة كبيرة، به ثلاث غرف فيها المراحيض، مع أنه ليس في البيت غيره. ليس له ابن أو زوجة أو أم، ليس له غير ابن أخ (شيخ الغفر) ومن ملامح الشكل العام للحمام يبدو أنه للضيوف، وهذا جعل الشيخ يتسائل أكثر، إذ راتب العمدة ليس كبير لهذه الدرجة، وإن كان يمكن أن يكون ورثه كما هو حال معظم الناس الأغنياء فكيف يدفع رواتب العمال والخدم.

وبينما يغسل كل من العمدة والشيخ يدهم دخل التاجر لإحدى غرف المراحيض ليفعل كما يفعل الناس. لم تمر ثواني إلى أن فرغ العمدة من غسيل يده.

قال العمدة مازحاً: «إيه قدامك كتير؟»

-«اه... أصلي لسا هتوضا. انت نسيت منا مصلتش العشا.» الشيخ مبتسماً

زادت ابتسامة العمدة وخرج متكئاً على عصاته قائلاً: «أنا هروح أشوف الراديو عشان التاجر.»

بعد خروج العمدة شمر الشيخ أكمامه ليغسل يده في نفس وقت خروج التاجر من الحمّام.

التفت الشيخ للتاجر قبل أن يقول هامساً: «أهلاً يا حضرت.»

نظر له التاجر للحظات باستغراب قبل أن يقول: «أهلاً.»

-«عملت إيه في الموضوع اللي كلمتك عليه؟»

سكت التاجر لحظة ليتذكر ما يقصده الشيخ إلى أن قال هامساً: «أه الفلوس اللي كنت عايزها.»

-«أنا عايزك تبني معهد قريب مني شوية عشان ابني مش عايزه يسافر بعيد أوي. سواء تديني فلوسه أو تبنيه إنت.»

-«أنا مش عارف إنت بتعمل كل دا لي ما تطلب الفلوس من الأزهر. دا انت حتى بتقابله في القاهرة كل شهر تقريباً»

-"لما بنتقابل مش بتكلم غير في حاجات دينية دا غير شيخ الأزهر مش فاضي بسبب الموضوع بتاع الإنجليز وجودهم مدايق الملك جداً، ومحمل شيخ الأزهر حمل كبير جداً انه يرجع الإسلام بس من غير ما يدي صلاحية ونفوز لجماعة الإخوان المسلمين."

-"لا لو كدا أنا هديك فلوسه. بس في مشكلة."

-"خير إن شاء الله. يا خراشي أنا نسيت إن إحنا في الحمام.... إيه هي المشكلة؟"

-"بس إيه رأيك في الريحة بتاعتي؟"

-"جميله جميلة جدا ما شاء ال... "

هنا تذكر انهم في الحمام وأكمل: " ايه بقى المشكلة؟"

-"المشكلة إن الريحة دي أنا نزلتها السوق من فترة بس محدش بيشتريها عشان الناس بتفضل تشتري مِسك."

-"ايوة يعني انت ناوي تبني المعهد بأزايز الريحة ولا إيه؟!"

-"لا بس أنا كنت عامل حسابي إن المعهد هيتبني بالأرباح بتاعة الأزايز."

-"طب وإيه الحل."

-"انت فعلاً عايزني أقولك الحل..... انك تخلي الناس متشتريش مسك وتشتري الريحة."

-"لا لا لا أنا عمري ما أحرم حاجة ربنا حللها.يادي النيلة أنا كل شوية بنسى إن إحنا في الحمام."

-"خلاص زي متحب بس إحنا الاتنين خسرانين."

تقلبت ملامح الشيخ قبل ان يكمل التاجر: "خلي بقى ابنك هيسافر للمعهد البعيد وربنا يحفظوا بقى. إيه دا إحنا في الحمام، تصدق الموضوع دا أصعب بكتير مما كنت أتخيل. المهم إن صعب انك تخلي عينك عليه في المعهد البعيد دا طبعاً."

-"بس أنا مش هعمله لابني بس. لإن أنا مش عارف اذا كان ابني هيعدي من اختبارات القبول ولا لأ."

-"انت بتكلم مين يا مولانا؟ انت بتحاول تقنعني ولا تقنع نفسك؟!"

صمت التاجر لحظتها بعد نظرة غضب من الشيخ وقال مربطاً على كتف الشيخ: "مش غلط ولا حرام انك تأمن مستقبل ابنك. دا غير إن هو مش ليك انت لوحدك. ناس كتير هتستفيد منه بدل الكتاتيب اللي ماليه الصعيد."

اقترب منه قليلاً وقال: "اللي انت بتعمله ده مش غلط."

إبتعد التاجر قليلاً وقال: "بس عشان دا يحصل لازم تخلي الناس تشتري الريحة الجديدة."

بلع الشيخ ريقه بصعوبة وقال: "الحكمة من المسك هي الزينة والريحة الحلوة. والريحة الجديدة ممكن تكون أحلى من المسك، ودا يعتبر تجديد ومجاراة للزمن اللي إحنا فيه. وانا هحاول اعمل اللي في وسعي."

بدأ التاجر يضحك ضحكة خفيفة ومشي وهو يربط على كتف الشيخ قائلاً: "إنت

بتعمل الصح.... إنت مش جاي ولا إيه؟»

-» لا لسا هتوضى عشان صلاة العشاء.»

أكمل التاجر ضحكته وهو في طريقه للخارج. وبعد عودة التاجر للغرفة وجد العمدة جالس في زاوية بعيدة في الغرفة يمكن القول عليها أنها الركن البعيد الهادئ. إذ أُطفئت كل الأنوار إلا نجفة صغيرة تعطي ضوء ضعيف نسبياً ومريح للعين. عند ثلاث كراسي ضخمة تبعد عن بعضها البعض ما يقارب الخمس أمتار. الكراسي كانت كبيرة وثقيلة تزن مئتان وخمسين كيلوجرام. يتوسط هذه الكراسي الضخمة الثقيلة طاولة صغيرة، يجلس العمدة على الكرسي الذي على اليمين وعلى يمينه فونوغراف الذي كان صامتاً. ينظر العمدة لمؤخرة إحدى الخادمات التي تضع له مكعبات السكر في كوب الشاي. نعم كان العمدة أمام هذا المشهد منذ فترة. تحمحم التاجر فنظر له العمدة وقال: «سكرك إيه؟»

-«زيادة.»

عاد العمدة لمؤخرة الخادمة قال وكأنه يحدث مؤخرتها: «سمعتيه.»

قالت بلكنة صعيدية: «إيوه يا سيادة العمدة.»

جلس التاجر على الكرسي المقابل للعمدة منتظراً كوب الشاي.

قال العمدة: «مفيش مشاريع جديدة ولا إيه؟»

قال له التاجر وهو ينظر لكوب الشاي منتظراً إياها: «لا والله الشغل نايم بس أنا حاسس إن مشروع الريحة هينجح.»

العمدة مازحاً: «انت هتستهبل؟ انا جايلي كلام انه نايم بقاله فترة. إنت إيه

مخليك تقول كدا؟ متجيش منك!»

رد التاجر وهو يستلم كوب الشاي من العاملة: «ثقة في الله.»

قال العمدة: «طب والأرباح بتاعة السلع ايه وضعها؟»

-«لسة زي ما هي. كل بتوع المحلات أجانب، هيعرفوا منين إن إحنا منشفنها عليهم ؟»

-«كله تمام يعني.»

-«اه الحمد لله. متشوفلنا كدا أي حاجة نسمعها.»

قام العمدة ليضع الأسطوانة في الفونوغراف.

-«بقولك.» العمدة.

نظر له التاجر بتنهيدة. فما على وشك الحدوث شيء تعود عليه التاجر.

-«كان في ماركة عربيات ألمانية كدا اللي هي زي اللي مع الملك دي.»

-«فولكس فاجن. مالها؟»

-«كنت عايز واحدة زيها.»

-«اللي مع الملك دي هدية من هتلر. يعني صعب انك تلاقي واحدة زيها بالظبط ولو دورت في ألمانيا ذات نفسها عشان الحرب، اجيبلك واحدة زيها إزاي؟»

-«يعني متعرفش تتصرف في واحدة. تنزلهالي من المينا بتاع إسكندرية.»

ضغط العمدة قاصداً على آخر ثلاث كلمات.

-"هحاول اتصرف." خرجت الكلمة تلقائياً من فمه لكنها كانت تخفي قلقاً كان لو وزع على الصعيد كلها لفاض.

بدا على العمدة أنه يوجه مشكلة مع الفونوغراف حتى قال بعصبية: "مش راضي يشتغل ليه البتاع ده؟"

دخل عليهم الشيخ وهو يعيد أكمام العباءة كما كانت قبل الوضوء: "السلام عليكم."

مع دخوله اشتغل الفونوغراف وبدأ بعزف الأغاني مما جعل العمدة يبتسم ثم التفت للشيخ الذي قال: "فين القبلة؟"

صمت كلاً من العمدة والتاجر فعلم الشيخ أنه سئل الأشخاص الخطأ. وانصرف باحثاً عن خادم ليسئله عن القبلة.

قال التاجر: "هو مش قصده قبلة اللي هي بوسة. صح؟"

-"لا مش قصده بوسة."

مع خروج الشيخ انقطعت الموسيقى مرة أخرى. تنهد العمدة وعاد له محولاً أن يشغله.

-"كان موضوع عايزك فيه." قال التاجر.

-"انت اللي عايزني! غريبة دي." قال العمدة مبتسماً.

-"لأ بجد. أنا كنت عايز أفاتحك فيه من فترة."

تنهد العمدة مرة أخرى وعاد للكرسي بعد فشله في تشغيل الفونوغراف.

-"خير في إي؟" العمدة.

-"حصة الفلوس اللي أنا ببعتها لتجديد الأسلحة بتاعة الغفر....."

-"عارف." قالها وهو يرتشف الشاي دون حتى النظر للتاجر.

-"الفلوس ناقصة أكتر من خمس..."

-"عارف."

سكت التاجر لخمس ثواني مستغرباً ثم قال: "الفلوس دي بتعدي على ابن أخوك.... اللي هو شيخ الغفر. ممكن بالغلط هو...."

-"لا هو واخدها قاصد. واه. هو خد الفلوس دي من ورايا."

-"هو لو عايز أي حاجة أنا تحت...."

-"عارف."

مرت خمس ثواني أخرى من الصمت ثم قال التاجر: "طب أي؟ هتسيبه."

-"اه. هسيبه يلعب بديله شوية عل وعسى يستنصح."

أخذ كلاهما نفساً عميقاً وقال العمدة مخرجاً زفيره: "كويس إن الواحد هيعيش الدنيا دي مرة واحدة أصل الصراحة الواحد مش مستحمل يعيد الخرا دا تاني."

هنا دخل عليهم الشيخ فجأة ومع دخوله عاد الفونوغراف استغرب كلا من العمدة

قال العمدة: "اتفضل اقعد يا مولانا. شايك ايه."

-"أي حاجة." رد الشيخ

قام العمدة من جلسته ليقوم بعمل الشاي بنفسه للشيخ.

قال الشيخ وهو يأخذ كوب الشاي من العمدة: "أنا معجب جداً باللي انت عملته. إنك بديت من الصفر يعني."

هز التاجر رأسه وهو يحتسي الشاي بدون رد. قال الشيخ: "انت عملتها إزاي؟"

رد التاجر وهو يشرب الشاي: "الفكرة كلها إنك تعرف الناس عايزه إيه، ولما تعرف الناس عايزه إيه بيعه."

-"طب ولو الناس مش عايزه." الشيخ.

-"يتخليهم يعوزوها." التاجر.

قال العمدة وهو الأخر يحتسي الشاي: "بس إنت برضه بدأت من الصفر برضو يا مولانا. عملتها إنت بقى إزاي؟"

رد الشيخ: "مفيش أحداث كتير. أنا قدمت اني ادرس في الأزهر. واتقبلت في الاختبارات. ودرست في جامعة الأزهر..."

قاطعه العمدة قائلاً: "وساعتها قابلت شيخ الأزهر."

تغيرت موسيقى الأوبرا إذ توقفت المغنية عن الغناء وعلت أصوات الطبول التي أعطت للأجواء جواً من الإثارة

رد الشيخ: «اه.»

قال العمدة: «طب وبنته. قابلتها امتى؟»

سكتت موسيقى الأوبرا فجأه قبل أن ينظر الشيخ للعمدة بنظرة غضب ممزوجة ببعض الصدمة حاول أن يخفيها لكن لم تسمح له عيناه، إلى أن سُمع صوت طلق بندقية بعيد لكنه رن صمت المكان.

قال التاجر: «ايه ده؟».

رد العمدة وهو ينظر للشيخ: « تلاقي واحد من الغفر ضرب عيار غلط ولا حاجة.»

نظر له التاجر وقال: «عمدة.»

قال العمدة: «خلاص هشوف في ايه.»

وقبل أن يحاول العمدة الصياح في أحد الخدم صاح فيه وفي الحاضرين طلقتان متتاليتان.

الفصل الثالث

رسالة استغاثة

على موسيقى طبول الأوبرا العالية صاح العمدة: "إيه اللي بيحصل هنا؟!". ما

لبس أن قالها حتى بدأت أصوات دربكة وأقدام بدأت تركض في المكان. وبعد ما يقارب العشرين ثانيه بدأت أصوات البنادق في الانتشار في المكان. صاح العمدة: «إيه اللي بيحصل هنا؟؟»

قال التاجر بصوت يرتعش من الرعب: «أنا لازم امشي حالاً. مفيش هنا غفر كتير.»

وحاول أن يقوم من كرسيه إلى أن أشار له العمدة بيده ليجلس مكانه. بينما تتعالى أصوات البنادق سُمعت أول صرخة، ثم بدأت تتوالى الصرخات. صرخات الصَرَع السابق للموت. حتى قال العمدة: «إحنا لازم نروح أوضة الراديو.»

قال التاجر بصوت يرتجف: «حاسس يا عمدة إن دا مش وقت مناسب إن إحنا نسمع حفلة الست الجديدة.»

نظر له العمدة بغضب وقال: «إحنا نقدر نبعت رسالة استغاثة للنقطة عن طريق التلغراف عشان يبعتولنا الغفر بس أنا مبعرفش استخدمها.»

قال التاجر: «أنا بعرف أنا اللي شاريهولك.»

بدأ ثلاثتهم بالمشي لخارج الغرفة، ويحوم حولهم أصوات البنادق ممزوجة بصوت صراخ الصرعى قبل أن تُزهق أرواحهم. بينما هم يركضون بين الغرف ينظر الشيخ الذي كان في المؤخرة إلى الغرفة التي على يساره حيث توجد نافذة يمكنه أن يرى الجنة التي في الخارج. يرى الشيخ أحد الغفر وهو يركض في نفس اتجاههم قبل أن تنفجر رأسه لتعكر نظافة زجاج النافذة.

«لا إله إلا الله» صاح بها الشيخ بأعلى صوته بعد أن تجمدت قدماه زُعراً.

هنا سحبه العمدة من ذراعه. وبدأوا بالركض حتى دخلوا إلى غرفة كبيرة جداً مليئة بالنوافذ المغلقة التي تمنع دخول الهواء للغرفة. أضاء العمدة المصباح الكهربي ليجدوا أن الغرفة مليئة بالملاءات تغطي ما تحتها من أثاث قديم أو تماثيل منحوتة ضخمة والملاءات حتى أنها تغطي اللوحات المعلقة على الحوائط. بدأ العمدة بسحب الملاءات الصغيرة التي على الطاولات في الغرفة. لاحظ الشيخ أن أصوات ضرب النار بدأت تتلاشى شيئا فشيئاً فبدأ بترديد بعض الأذكار التي حفظها عن ظهر قلب، وبدأ باستخدام السبحة لتحدث أصوات طرقعة منخفضة. إلى أن سحب العمدة إحدى الملاءات ليجد جهاز تليجراف عتيق. سحب التاجر كرسي ليضعه أمام الطاولة على يمينه العمدة وعلى يساره الشيخ وبدأ بالضغط عليه ليرسل رسالة مشفره للنقطة وبينما يرسل التاجر الرسالة لاحظ العمدة أن السرايا هادئة تماماً عدا صوت سبحة الشيخ التي أصبح لها صدا صوت في الغرفة بالكامل مع صوت الأوبرا الخافت القادم من الغرفة التي كانوا فيها. قال العمدة: «إنت قدامك كتير؟»

قال التاجر: «كدا أنا خلصت أربع حروف.»

-«إيه؟!» قال العمدة بعصبية.

-«أنا مش خبير يعني.»

بدأ صوت الشيخ يعلوا فقال له العمدة: «في سرك عشان عايزين نركز هنا.»

صمت الشيخ إلى أن سمعوا صوت أقدام بطيئة تمشي في اتجاه الغرفة. بطيئة وغير ثابتة ترن في ذلك الهدوء المخيف. حتى يظهر خيال رجل أعرج يمشي في اتجاههم. توقفت أنفاس الشيخ والتاجر. جاء من الخارج صوت رجل يمكن

سماع الدم الخارج من فمه: «الحقني يا عمده.»

هنا ظهر الرجل والدم يملأ وجهه ولا يمكن تمييز لون عباءته من الدم. حاول أن يتكلم لكنه سقط على الأرض حتى يظهر ظهره الذي رُشق ببلطة. انقطعت أنفاس التاجر والشيخ، وزاد الطين بله انقطاع تيار الكهرباء الذي ترك الجو مظلم إلا ضوء البدر الذي أدخل من الضوء ما يسمح لهم بتمييز ما هو موجود مما ليس موجود.

قال العمدة للتاجر بشدة: «اخلص ابعت التليجراف.»

قال التاجر: «كدا مش هيتبعت لازم كهربا.»

قال العمدة: «لا مش لازم عشان ده غير بقيت السرايا الكهربا بتاعته جاية من الطريق العمومي.»

عاد التاجر للتليجراف وعاد الشيخ للتسبيح. وبعد مرور ثلاثين ثانية من الصمت الممتزج بأصوات الطقطقة وصدى صوتها وصوت الرياح تهب من زجاج النوافذ للغرفة.

قال العمدة: «قدامك كتير؟»

رد التاجر: «هانت... مش ناقص كتير.»

قال الشيخ بينما يكتب التاجر: «لحظة هو صوت الهوا دا جي منين؟»

مع خروج حرف النون من فم الشيخ خرج صوت بندقية من داخل الغرفة لتنفجر على إثرها يد التاجر التي يستخدم بها التليجراف، يطير معظم الدم

على الشيخ الذي يسقط أرضاً من فزع ما سمع. أمسك التاجر يده وظل يعوي كالذئاب ويلتوى كالثعابين بعد أن سقط على الأرض والدم يهرق عليه وحوله.

والشيخ غير مصدق لما يراه. استدار العمدة ناحية صوت إطلاق النار حيث كانت التماثيل تملأ هذه الناحية من الغرفة، بينما التاجر والشيخ على الأرض وصوت التاجر يُسمع الصُم قال العمدة: «وريني نفسك أنا عايز اشوف اللي هيقتلني.»

تقلبت معدة التاجر مصدرةً أصوات غريبة. كما خرج من بين التماثيل رجل ضخم الهيئة ملامح وجهه انغمست في ظلال الغرفة، يقوم بوضع طلقة في بندقية فضية مزخرفة بالذهب ملطخة بالدماء. كما أن يديه ملطخة بالدماء حتى كوعيه. توقف التاجر عن الصراخ لثواني مع علو صراخ معدته إلى أن تقيء مخرجاً تقريبا نصف المحمر والمشمر الذي تناوله على العشاء ثم فقد وعيه غارقاً بين دمه ونص ما تناوله من طعام.

قال العمدة: «أكيد.... الخُط؟»

قال الخُط وهو يوجه البندقية ناحيتهم: « شيلوه من الأرض..... وامشوا قدامي.»

الفصل الرابع

العودة للسفرة

أعاد الخُط الكهرباء للمكان. وقام بتقييد كلاً من العمدة والتاجر والشيخ في

نفس الغرفة التي كانوا فيها وعلى نفس الكراسي الضخمة الثقيلة التي كانوا يشربون عليها الشاي. كان التاجر على اليمين والشيخ على اليسار والعمدة في المنتصف، سحب الخُط إحدى كراسي السفرة ووضع بالعكس حيث أمامه ظهر الكرسي لأنه شخص روش طحن. ظل صامتاً بينما تغني سيدة الأوبرا ما يقارب العشرين ثانية منتظراً التاجر ليفيق.

قال الشيخ: "إنت عايز إيه؟"

لم يرد الخُط. لم يحرك حتى عينيه.

أكمل الشيخ: "لو إنت عايز تقتلنا كان زمانّا ميتين. إنت أكيد عايز حاجة، إيه هي؟" يتكلم الشيخ بثقة مزيفة فهو في الحقيقة خائف.

قال العمدة: "أنا أول مرة أقول كدا، بس معاه حق."

وضع الخُط البندقية الفضية على الأرض وقام وصفع التاجر صفعة لو كان التاجر فائق لأغمى عليه. لم يفق التاجر فقام بصفعه الثاني فالثالث فالرابع حتى حمرَّ وجهه وورمت وجنتاه.

قال الشيخ: "مستحيل يفوق كدا."

فالخامس فالسادس إلى أن فاق مع السابع.

نظر الخُط للشيخ بابتسامة وعاد ليجلس على الكرسي بينما يحاول التاجر أن يتذكر أين هو.

وبينما التاجر ينظر للعمدة الذي يبدو عليه بعض ملامح الخوف والشيخ المسكوب عليه دم والرجل الوسيم الضخم الغامض الذي ينظر له بعينه الخضراء. بعدها خرجت منه أصوات غريبة كأنه يقول تعويذة.

-"أي... انتوا... في أي..... هو.." قالها التاجر قبل أن تقع عينه على يده التي لم تعد موجودة. صاح التاجر بصوت منخفض من الصدمة بينما صياح معدته كان أعلى إذ بدأت تصدر أصوات مرة أخرى. ليقيء التاجر نصف ما تبقى من العشاء.

انتظر الخُط التاجر حتى يخرج التاجر نصف ما في نفسه. وبعد انتهائه قال الخُط مبتسماً: "عموماً كل اللي انتوا عملتوه كان على الفاضي عشان النقطة مفيهاش حد."

-"إنت عملت إيه؟" قالها العمدة بغضب وخوف وحزن.

بادله الخُط بإبتسامة قبل أن يقول: "أنا لما دخلت الأوضة اللي كنتوا فيها كان قدامي اختيار من اتنين.... يا إما أقتلكوا وأخلص منكوا وأهرب، يا إما اتسلى بيكوا شوية وهو أحسن من إني اطلع من المولد بلا حمص. ولا إنت إيه رأيك يا عمدة؟"

قال الخُط آخر جملة وهو ينظر للعمدة مبتسماً وبادله العمدة نظرة غضب. قال التاجر بصوت يرتجف والدمع قد ملأ عينيه: "طب أنا أنا أنا مالي طيب. لي تعمل فيا كدا؟ انا ع..ع...عمري ما عملتلك حاجة. العمدة هـ..هـ..هو اللي ح..حط الفدية عليك والشيخ هو اللي قال إن قتلك واجب أنا مالي؟"

رفع الخُط حاجبيه وأكمل مبتسماً كما لم يسمع حرفاً: **"أنا جمعتكوا هنا عشان نلعب لعبة اضمن بيها ان أحسن حاجة هتطلع منكوا انتوا التلاتة."**

قام الخُط من جلسته التقط بندقيته وأخذ يتجول في الغرفة قائلاً:

«لما أنا كنت معاكوا في الأوضة مكنش معايا غير تلت طلقات. واحدة في ايد التاجر واتنين متعمرين في البندقية. وأنا الصراحة راجل بيحب يجيب من الأخر.»

أشار للحاضرين بالبندقية: «في اتنين منكوا هيموتوا كمان شوية وواحد بس هو اللي هيعيش. وعلى فكرة سهل جداً انك تعيش في اللعبة. كل اللي عليك تقنعني اني أسيبك تعيش واقتل الباقي.»

قال التاجر: «ك...كل اللي إنت عايزه.»

التفت الخُط للتاجر وبدأ يمشي في اتجاهه حتى وقف أمامه مباشرة.

أكمل التاجر والدمع قد بدأ ينزل من عينه: «انا أ..أقدر اجيبلك كل حاجة نفسك فيها. أقدر اشتريلك كل اللي تتخيله واللي متتخيل....»

اسكت الخُط التاجر عن طريق وضع البندقية في فمه حتى كادت أن تلامس لسان المزمار.

قال الخُط: «هو كلام زي الفل وكل حاجة. بس أنا عندي سؤال شخصي. ينفع اسألهولك؟»

هز التاجر رأسه وفمه محشو بالبندقية. نزع الخُط البندقية من فمه وتمشى للنافذة.

-«أنا اسمع انك عندك خمس عربيات من اللي هي بمتور دي، مع كدا أنا مش بشوفك غير بالعربية الكَرّو بتاعتك..... لي؟»

سكت التاجر حوالي عشر ثواني وقال: «عشان الطريق ميبوظش الكوتشات بتاعة

العربيات."

ضحك الخُط بصوت عالي وقال: "إحنا هنهزر؟"

قال التاجر صائحاً غضباً وقد نزل الدمع من عينه: "ماشي عايز تعرف لي؟ أنا هقولك."

تقلبت ملامح الخُط فأكمل التاجر: "أنا قرفان انزل بيها وسط الناس دي. مستخسر البنزين أخلص البنزين على الطريق اللي هما بيمشوا عليه. مش عايزهم يشوفوني راكبها الصراحة مش عايزهم يشوفوا عربية أصلا."

صمت الخط لثواني ثم ضحك قائلاً: "الله الله الله. شوف الروح ردت فيه إزاي... تمام يعني إنت هتشتريلي كل اللي نفسي فيه. طب وانت هيبقالك إيه؟"

رد التاجر: "ملكش دعوه بيا أنا خلاص بشتري مينا في إسكندرية وخلاص ماشي وسايب أم الصعيد."

-"طب ما كدا أنا مش هعرف أصرفها لأن الفدية هتفضل عليا. والناس هتكون لسا كارهاني."

-"لما أشتري المينا بتاع إسكندرية هيكون سهل جداً عليا إني أهربك برا البلد."

التفت الخُط للعمدة وقال: "وإنت إيه نظامك."

رد العمدة: "بلاش أنا."

-"لي؟"

-«أصل كل اللي أنا هديهولك إنت مش هتاخده مني.»

-«إزاي؟»

-«انا ممكن اديك البيت ده مثلاً. بس تاني يوم وبمكالمة تلفون هيكون معايا واحد تاني. ولو انت أخدت مني التاني، بردو بمكالمة تلفون هيكون معايا واحد تالت. فلنقل مثلاً إني رفعت الفدية من عليك وسيبتك تنزل من الجبل وتعيش بني آدم عادي زي بقيت الخلق. أنا كدا خسرت حاجة؟ بس كل دا إنت مش عايزه. أنا عارف إنت عايز إيه. إنت عايز تاخد من حد فينا حاجة. إنت عايز تأذينا.»

ضحك الخُط قائلاً: «انتوا فعلاً أكتر ناس ضحكتني من سنين. مش عشان خفه دمكوا عشان أنا مشفتش حد من زماان.»

التفت الخُط للشيخ وقال ضاحكاً: «وانت معانا ولا غياب انهاردة.»

-«لا أنا أخري أشارك بكلام. صدقني أنا مش معايا أي حاجة أقدر أساعدك بيها.»

-«حرفياً دي احتمال كبير تكون آخر حاجة تقولها.»

-«أنا هقول حاجة مش عارف انت واخد بالك منها ولا لأ بس انت هتخش النار. لو اللي أنا سمعته فانت شخص قتل أكتر من ألف واحد منهم ابوك وأخواتك. فأنا مش لاقي حاجة ممكن أقولهالك. الصراحة لساني عاجز عن الكلام.»

-«في حاجة أنا حابب أوصلهالك يا مولانا.» قال الخُط.

-«اتفضل إحنا ورانا حاجة.» يحاول الشيخ أن يبدو غير خائف. وهو فعلاً ليس

خائفاً بل هو مزعور.

-«أنا حضرتلك واحدة من الخطب بتاعتك كنت بتقول فيها «العنف مستحيل يكون وسيلة للسلام» صح؟»

-«مظبوط.» الشيخ.

-«تعرف تقولي كدا أي هو أول عذر لموسى مع الخِضر؟» الخطُ.

-«السفينة اللي خرقها.» الشيخ.

-«طب والتالت؟» الخُط.

-«الجدار اللي صلحه. إنت عايز تقول أي؟ ولا واحدة من دول كان فيهم عنف.» الشيخ.

-«طب والتاني؟» الخُط مبتسماً هذه المرة.

-« الطفل اللي سيدنا الخِضر قت....» توقف الشيخ عن الكلام فجأة.

مرت ثانيتين إلى أن قال الخَّط مبتسماً: «اللي الخِضر قتله. صح؟»

ظل الشيخ صامتاً للحظات إلى أن قال الخَّط: « إلا قولي هو كدا يعتبر قاتل. وبالتالي يجب القصاص منه؟»

رد الشيخ: « دي ليها كذا تأويل.»

-«طب قولي كدا اتوصف إزاي في الكتاب؟» الخُط.

-"(فوجد عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما)" الشيخ.

-"أهو شوف يا جدع! عنده رحمة. لا وشوف الرحمة جيّاله من عند مين، وفي الآخر رايح يقتل عيل صغير!" الخُط.

-"بس دي حالة خاصة لأن الولد دا كان هيكون عاصى دا غير إن إنت عايز تقارن نفسك بالخِضر إزاي" الشيخ.

-"وماله هو أنا قولت حاجة. بس دا ميمنعش إن الخضر قتله. صح ولا أنا غلطان؟"

ظل الخُط مبتسماً للحظات مستمتعاً بالحيرة التي ترك فيها الشيخ وقال: "أنت تعرف إني كنت شغال مع العمدة زمان لما كان صغير..... كنت حارس شخصي ليه."

التفت الخُط للعمدة قائلاً: "فاكر أول مرة قتلت فيها؟"

-" أكيد."

-"طب متحكي."

نظر العمدة للشيخ قائلا: "أنا بقول تسد ودنك عشان مش هتحب اللي هتسمعه."

لم يتحرك الشيخ فروى العمدة: "كان أبوه شغال معايا في الحسابات. عرفت من التاجر إن هو بيخنصر من الفلوس السنوية اللي كانت بتبعتها المملكة كنوع من أنواع الدعم. بس المشكلة إن الفلوس دي ديماً بتروح على خطوط

الحشيش اللي كنت بعملها من ورا الإنجليز. وانا كنت صغير والإنجليز كانوا لسه مسيطرين على المملكة. مكنش ليا كلمة عليهم ولا على المحكمة ولا حتى على الغفر عكس دلوقت طبعاً. وهو كان عارف إني مقدرش أعمل معاه حاجة من غير ما أكشف نفسي. والحاجات دي مكنش ينفع الإنجليز يعرفوها. وكان ساعتها الخُط عيل فتوة كدا. كنت تحطه قدام الأسد تلاقيه نونو. قلتله بمنتهى البساطة أنا عايزك تقتل أبوك عشان كذا كذا كذا. ربع ساعة وكان أبوه ميت. اخواته شافوه وهو بيقتله، وانا كنت قلتله محدش يشوفك، فقتلهم. من ساعتها عرفت أهميته.

وعلى فكرة هو السلاح اللي أنا انتصرت بيه على الإنجليز. مرة أخليه يقتل قائد ومرة أخليه يحرر مساجين. عايز أقولك إني أوقات كنت بخليه يقتل مصريين على أساس إن الإنجليز هما اللي قتلوهم عشان اجمع ناس أكتر. صحيح الإنجليز لحد دلوقت لسة ممشيوش، بس محدش فيهم يقدر يفتح بقه على أي حاجة بعملها. من ساعتها وأنا عرفت أهميته. وأكتر من كدا عرفت أهميه إن يكون المحكمة والغفر تحت ايدي. بس كدا. ومن ساعتها والخط ساعد في كل عملية عملتها عشان ابعد الإنجليز عن مصر. الحق يتقال لولاه مكنش زمان ولا عملية نجحت. العمليات اللي قصاد الإنجليز."

-"إنت السبب. إنت المسؤول عن اللي أنا فيه." قال الخُط.

ضحك الشيخ وقال: "انت فعلاً أشد عقاب لنفسك. انت بتحاول على قد ما تقدر تقنع نفسك انك صح. وعمال تدور على حد تلومه غير نفسك. لكن من جواك انت عارف انك شخص ميتقلعش من الرجل."

-"الله الله الله. انت باين عليك رامي طوبة نفسك."

-"لا. أنا هفهمك. أصل أنا معنديش حاجة اديهالك. مش معايا فلوس مش معايا سلطة مش معايا حاجة. السؤال بقى انت هتقتل مين معايا؟"

-"بيعجبني انك متصالح مع إنك هتموت."

-"أصل اعرف ناس ماتوا موتات أبشع من دي بكتير. صدقني انك تموت بطلقة في راسك دي من أسهل الموتات اللي تتخيلها. دا غير إن في احتمال أكون شهيد." لازال الشيخ يحاول أن يظهر غير خائف.

-"طبعاً ما إنت عامل حسابك انك داخل الجنة. إنت عارف أنا فضلت قاعد في الجبل لوحدي حوالي سنتين. ودا خلاني أعرف حاجات عن الذات الإلهية انت متعرفهاش."

-"أشك."

-"ربنا محتاجنا."

-"نعم يا روح أمك!" هذه المرة فعلاً لم يكن الشيخ خائف.

-"هو أنا لو جبتلك فلاح مزرعش ولا مرة قبل كدا، وقلتلك إنه فلاح. هتصدقني"

-"أكيد لا."

-"دا معناه إن الفلاح محتاج الزرع اللي هيزعه عشان يكون فلاح."

-"بس الكلام دا مبينطبقش على ربنا."

-"وتخيل معايا كدا لو أنا الناس كلها مش بيجيلهم مرض. مش بيتعبوا يعني. وجبتلهم واحد وقولتلهم إن دا دكتور. هتصدقني؟"

-"أكيد لا."

-"يعني دا معناه إن الدكتور محتاج المرضى عشان يكون دكتور."

-"بس برضو الكلام دا لا ينطبق على ربنا سبحانه وتعالى."

-"نفس الكلام ينطبق على ربنا."

-"انت سمعت أي حاجة أنا قولتها؟"

-"ربنا محتاج بشر. ومحتاج يكون البشر دول منهم ظالم ومنهم مظلوم. عشان في الأخرة يقول دا ظالم ودا مظلوم. وبكدا يكون حقق العدالة زي ما هو بيقول على نفسه. وبالتالي محتاج يعاقب الظالم والمظلوم وبكدا يبقى حاسب البشر والمخلوقات وبالتالي يكون المحاسب. وقيس على كدا كل حاجة هو قالها على نفسه."

-"كان نفسي أسقفلك قبل ما أسد البلاعة اللي طفحت في ودني بس للأسف إيدي متكلبشة."

-"انا مكلبش إيد واحدة. ممكن تسقف عادي!" قال التاجر بينما نظر له العمدة مستغرباً كيف لا يزال فيه الروح لمثل هذه الدعابات..

قاطع كلامهم أصوات أقدام تركض في السرايا.

-"إيه التهريج ده؟! أنا متأكد إني قاتل كل اللي هنا. بما فيهم الخدم."

نظر له العمدة والشيخ بمنتهى الاستحقار. ظل صوت الأقدام يركض أنحاء السرايا. إذ من كثرة الغرف صعب العثور عليهم. ظل الأربعة جالسين ناظرين للباب منتظرين وصول صاحب الأقدام. ولازالت الأقدام تجري مهرولة. وظلوا منتظرين. والأقدام تركض، وهم منتظرين، والأقدام تركض حتى لاحظوا أن الصوت يبتعد عنهم.

حينها فرغ صبر الخُط وقال صائحاً: "إحنا هنا."

-"هنا فين؟" رد عليه صوتٌ بعيد.

-"إمشي ورا صوتي." الخُط.

-"انتوا في أوضة السفرة؟"

نظر الخُط للعمدة مستغرباً فهو لا يعرف الإجابة. أماء له العمدة إيجاباً.

-"اااه." صاح الخُط.

جرى نحوهم بسرعة. ودخل شيخ الغفر بسرعة شديدة ويحاول أن يقف أمام الباب مباشرة ولا يمكنه فعل ذلك إلا بعد التزلج على الخشب لبضعة أمتار. يتفقد الغرفة باحثاً عنهم. فحجم الغرفة يصعب العثور عليهم. ثم يجد أربعتهم ينظرون له. ينظر شيخ الغفر للخُط. ويحرك يمناه بقرب المسدس الفضي الكبير.

قال الخُط مبتسماً: "إوعى حتى تفكر. ناس كتيييييييييير جداً قبلك كانوا بيحسبوا انهم ممكن يسبقوني في رفع السلاح.... صدقني لو حاولت فدي هتكون آخر غلطة تعملها في حياتك."

لم يتحرك شيخ الغفر ملي متر واحد لبضع ثواني إلى أن قال الخُط: "أنا بقول تطلعلي السلاح الفضة اللي معاك ده براحه كدا زي الشاطر، وتحطه على الأرض وتشوطه برجلك ناحيتي بدل ما أطخك بالنار. ولا إنت إيه رأيك؟"

بدأ الفونوغراف بإضافة الكمان مع الطبول مضيفاً أجواء أكثر إثارة. ظل شيخ الغفر ثابتاً مكانه لبعض الوقت. أشار له العمدة أن يهدأ فسبحان الله هدأ إذ

لم يخيبه عمّه ولا مرة ولم تمر أي أزمة أو موقف صعب إلا ووجد له حل. يفكر شيخ الغفر لم لا يقتله؟ لو أخرج السلاح وأمسكه في يده ليتظاهر أنه سيضعه على الأرض حينها ستكون فرصة الخُط لإطلاق النار أولاً أقل بكثير. وضع يده على المسدس وأخرجه من جرابه أمام نظر كل الحاضرين وصمتهم ماعدا الفونوغراف، وتدنى شيخ الغفر من الأرض ببطء دون النظر للخُط ليضع المسدس على الأرض. وعندما لمس المسدس الأرض وجد أقدام الخُط أمام عينيه،

وحين رفع عينه لأعلى وجد نفسه ينظر مباشرة إلى البندقية التي لا تبعد عنه مسافة حبة رمل. تلاشت حينها كل الأفكار البطولية التي تكونت في خياله وأصبحت كلها دعوات ألا يقتله الخُط. وحين قام ببطء قامت معه البندقية.

نظر لعمه: «أنا آسف يا عمي.»

-«متخافش كل حاجة هتبقى زي الفل تعالى احضن عمك دي غالباً هتكون آخر مرة أشوفك فيها.» قال العمدة.

بسبب تلك الجملة الأخيرة كاد قلب شيخ الغفر أن يقف، التفت شيخ الغفر للخُط ليجد وجه الخُط أمامه مباشرةً. ينظر له نظرة بلاهة من سخافة الطلب، لكن سرعان ما تحولت هذه النظرة لابتسامة مبهمة المضمون، ثم يشير الخُط بيده لشيخ الغفر سامحاً بهذا الطلب السخيف. يذهب شيخ الغفر للعمدة ويضمه وهو جالس إذ ليس بمقدوره الوقوف. وبينما هم يحتضنان يقيئ التاجر مرة ثالثة.

-«ما خلاص يعم إنت قرفتنا.» قال الخُط.

-«أنا متأكد أنك لو كنت مكانه كان زمانك رجعت زيه بالظبط.» قال الشيخ.

ضحك الخُط باستخفاف.

-«مستحيل طبعاً.»

والتفت للمتعانقين قائلاً لشيخ الغفر: «عموماً إنت جيت في وقتك. أنا كنت عايزك في مصلحة لو انت مش وراك حاجة يعني.»

قال العمدة: «تقصد إيه؟»

-«أنا مكنتش عامل حسابي على حاجة، وهي إني مش عارف اضمن إزاي إن الشخص اللي هيكسب هيديني اللي قال عليه، وبناءاً على ذلك. فهخلي اللي هيكسب يكتب جواب زي إقرار كدا هيديهوني، اقرأه عشان اتأكد ان مفيهوش حاجة كدا ولا كدا. وهديه لشيخ الغفر ي....»

قاطعه التاجر: «هات بس ورقة وقلم وهكتبلك كل حاجة. كل حاجة ممكن تتخيلها.»

-«انت إزاي مش قلقان أحسن شيخ الغفر يجمع الناس عشان تلحقنا.» قال الشيخ.

-«محدش هيصدقه. وهياخد وقت على ما يقنع الناس. هيكون عدى على أقل تقدير يومين.وحد يجيب ورقة وقلم للأخ ده. دا حرفياً هيموت ويديني كل اللي حيلته.»

أشار العمدة لدرج الطاولة التي عليها الفونوغراف الذي بدأت فيه المغنية تغني مع الطبول الكمان. أخرج الخط منه ورقة وقلم وقال للتاجر: «اكتب»

رد التاجر بصوت يرتجف: «أنا كنت بكتب بايدي اللي انت.....»

- «اتصرف.» الخُط

-«اعمل أي ول....» أسكته الخُط مرة أخرى بوضع البندقية في فمه.

الخُط: «أنا بقولك اتصرف.»

هزّ التاجر رأسه موافقاً فأخرج الخُط البندقية من فمه ببطء شديد ظل التاجر يُعافر ليكتب الجواب.

وبعد الإنتهاء أمسك الخُط الرسالة واستدار للناحية الأخرى ليقرأ الرسالة بعيداً عن أنظار التاجر والعمدة وابن أخيه مع أن الجهة التي استدار لها كان فيها الشيخ لكن لا بأس فهو ميت لا محالة. وعلى موسيقى الأوبرا التي يغنيها الفونوغراف قرأ الخُط الرسالة بينما ينظر له الشيخ ولاحظ أن الخُط عينه ثابتة في مكان واحد في الرسالة ولا تتحرك.

بعد بضعة ثواني التفت الخُط للبقية وقال: "أظن كدا إن في فايز."

أعطى الخُط الرسالة لشيخ الغفر وقال: "صدقنى دي أحسن فرصة ليك انك تمشي."

وبينما يرحل شيخ الغفر في ترقب من العمدة لابن أخيه أن يخرج. عمر الخُط بندقيته.

حينها صاح الشيخ: "استنى أنا الوحيد اللي ممكن يديك اللي إنت عايزه."

-"قصدك إيه." الخُط.

-"إنت عايز تاخد السلطة من العمدة والفلوس من التاجر. أنا الوحيد اللي هيعرف ياخدها منهم."

صاح التاجر: "اخرس يا وسخ يا حته كلب منتن ملكش تلاتة لزمة...."

أسكته الخُط عن طريق صفعه بمؤخرة البندقية دون النظر له طار بسببها بضعة أسنان من فم التاجر. طبعاً أراد التاجر الصراخ لكنه لم يرد أن يُضرب مرة أخرى.

-«كمّل.» قال الخُط وقد أعطى للشيخ كل تركيزه.

-«أنا أقدر أديك الإعفا اللي انت عايزها من العمدة والفلوس من التاجر حتى بعد ما تقتلهم. سيبني بس أخطب في الناس بكرة أنا هديك فعلاً كل حاجة بما فيها حب الناس.»

فكر الخُط للحظة وقال: « النهارده ممكن يكون يوم سعدي. بس أنا مش هستنى لبكرة ان...»

-«خلاص أنا عندي فكرة. أنا هبعت لإبني دلوقت وهو هيجمع الناس وأنا هخطب فيهم دلوقت. وبكرة الصبح هتلاقي الناس كلها بتحبك مش بس كدا، هخلي الناس تعمل مظاهرات على العمدة والتاجر. إيه رأيك.»

سكت الخُط يفكر للحظة، وقال: « حد يجيب ورقة هنا يجماعة، دا كدا عظمة قوي.»

كتب الشيخ الرسالة بينما التاجر يبكي عاجز عن الكلام محاولاً استيعاب انه سوف يُقتل، وبعد أن انتهى الشيخ قرأها الخُط وأعطى الورقة لشيخ الغفر.

صوت أقدام شيخ الغفر على الخشب كان عالي. إذ ليس في المكان صوت غيره حتى أن الفونوغراف توقف عن الغناء. كان مع كل خطة يضق قلب كل الحاضرين. لأنهم لحد هذه اللحظة لا يعلم أي منهم إذا كان سيعيش أم سيموت. حتى الشيخ. فهو لا يعلم إذا كان الخُط سيتركه يعيش حتى بعد الإقرار. فبهذا الإقرار قد ضمن الخُط ما وعد به الشيخ فليس هناك سبب يجعل الخُط يفي بوعده. بعد خروج شيخ الغفر من الغرفة توقف على المشي

لحظة. حينها ظهرت على الشيخ بعض ملامح القلق على الشيخ. ثم أكمل شيخ الغفر سيره مرة أُخرى. حتى سُمع صوت باب السرايا يُقفل من قِبل شيخ الغفر.

تنفس العمدة الصعداء بعد أن كان قلق على ابن أخيه. فهو ومهما قسى قلبه يحب ابن أخيه فهو كل ما يملك. بعد مرور عشر ثواني من الصمت جفت فيها أفواههم وعرقت وجوههم وزادت ضربات قلبهم فتسارع الدم في عروقهم. ووصل حد إفراز هرمون الأدرنالين لأقصاه.

قال العمدة للخُط: «خلاص بقى فكنا. وأنا هسامحك على كل اللي انت عملته لحد دلوقت.»

بدأ الخُط في الضحك حتى بدأ امتزاج السعال بالضحك. اقترب من العمدة.

-«أنا عندي فكرة أحسن.»

هنا على صوت الأوبرا الصادر من الفونوغراف بكل الآلات الممكنة من طبول ومزامير بل وحتى المغنية حيث كسرت كل الطبقات الصوتية ووصلت لأعلى السلالم الموسيقية.

-«فكنا بقلك.» صاح العمدة.

ضحك الخُط وقام بالالتفاف للتاجر وقام بتعمير البندقية التي رن صوتها مسامع المكان ناشراً فيه الرعب، ووجّه البندقية لوجه التاجر الذي فر الدم منه حتى صار لشفتيه وبشرته نفس اللون الأصفر. كاد قلبه أن يقف لمجرد وجود البندقية أمامه وخلفها الخُط. كانت البندقية قريبة منه لدرجة أنه كان يشم الحديد والبارود كما يشم ريح الجحيم معهم. وبينما الخُط منتشي والساعدة تغره. وهو على وشك أن يرسل التاجر لربه، أخرج العمدة من خلف ظهره مسدس فضي متوسط الحجم منقوش على جانبه الأيمن نجمه ذهبية،

التفت له الخُط محاولاً أن يسبقه بضرب النار لكن العمدة كان سريع. أطلق العمدة النار على الخُط صرخ على أثرها التاجر ظاناً أنه المقصود بها. كان هدف العمدة رأس الخُط لكنه أخطأ وأصاب خصيتيه. سقط الآخر على الطاولة الصغيرة التي كان عليها الشاي والتي طبعاً تحطمت وبعد أن سقط أطلق الخُط عيار بالخطأ في النجفة التي سقطت على الخُط وآلمته بشدة الذي تاركاً الغرفة مظلمة غير ضوءٍ قادم من الباب على كل الحاضرين عدا العمدة الذي اختفى في الظلام. حينها ظهر صوت آذان خافت طبعاً لا يمكن سماعه بسبب صراخ المسكين المخصي. حاول العمدة التصويب لكن كان هو والمسدس الوحيدان الذين انغمسا في الظلام فلا يستطيع أن يوجهه بدقة فهو لا يرى المسدس. فمد يده قدر المستطاع ليصل للضوء القادم من الباب ليستطيع توجيه المسدس مجدداً على الثور الذي يطلق صوت خوار ممسكاً بما تبقى من خصيتيه. لكن بين ظلام الغرفة، وفي نفس الثانية التي وصلت فيها يد العمدة للنور خرجت سكين من الظلام قطعت يد العمدة لكي تفارقه صارخاً. وينطلق مع ارتطام المسدس ويده على الأرض طلقة تصيب فخذ الشخص الذي قطع يد العمدة لتنفجر منه صرخة يمكن التمييز أنها صرخة امرأة.

الفصل الخامس

يوم الأربعاء

المكان: أمام البوابة الرئيسية لسرايا عمدة الصعيد.

الزمان: عصر يوم الأربعاء – ١٩٤٧م (اليوم السابق لما سبق).

يجلس غفيران أمام بوابة السرايا على كتف كل منهما بندقية. وفي يد كل منهما كوب شاي. يتكلمان عن النساء اللواتي كانت في إحدى الحفلات التي قام بها العمدة. يلاحظ أحدهما رجل يمشي في اتجاههما، ضخم يرتدي عباءة بنية وعلى رأسه عمامة بوشاح يغطي بها وجهه، كما يسحب بيمينه حصاناً عن طريق لجامه وعندما كان على مسافة أربعين متراً صاح أحدهما: "إنت مين؟"

لم يبالي الرجل القادم لِما قاله وأكمل سيره. وعندما كان على بُعد ثلاثين متراً وضع أحدهما يده على البندقية قائلاً: "إنت مين بقولك. أنا مش عايز أأزيك."

لم يبالي الرجل لما قاله واستمر في المشي لهما. وعلى بُعد عشرين وضع أحدهما كوب الشاي الذي كان في يديه وأمسك ببندقيته وصوبها عليه وقال: "اثبت مكانك لاطخك عيار."

قال الأخر بلا مبالاة وهو يرتشف الشاي: "يعمر تلاقيه شحات اخرس ولا حاجة."

لم ينزل الآخر بندقيته وبينما يبعد الرجل عنهما بضع خطوات. صاح الغفير: "انت مين؟ أنا مش عايز الناس تقول غفر العمدة بيضربوا الناس."

حينها وقف الرجل أمامهما، وبينما ينظران لأعلى أحدهما بتوتر والأخر بلا مبالاة، إذ رأس الطويل فيهما تصل عند كتف هذا الرجل.

قال المُتوتر بينما الأخر يرتشف الشاي: "انت مين؟"

-"أنا الخُط."

قالها وأمسك طرف البندقية ودفعها بشده في وجهه ممسكها. كُسرت أنفه، أُغمى عليه. صُعِق الآخر وألقى كوب الشاي على الأرض وقبل أن يصل لبندقيته لحقه الخُط عن طريق وضع إبهامه في عينه اليسرى، بدأ الغفير بالصراخ بأعلى ما يمكن ممسكاً بزراع الخُط يحاول الوصول لأي جزء من جسد الخُط ليضربه لكن بلا جدوى. سمع من بداخل السرايا صوت صراخه. وبدأوا بالبحث عن مصدر الصراخ، سمع الخُط أصوات صيحات منها: "مين اللي بيصوت؟" و "في إي؟" و "مين الي بيصوت؟" لكن سَمع بينهم " الصوت جاي من عند البوابة الرئيسية. ارتبك لكثرة الغفر. ففي الطبيعي العدد يكون أقل من ذلك بكثير.

أخرج الخُط أصبعه وتركه يصرخ على الأرض وامتطى حصانه مستغرباً. لمَ كل هذه الجلبة؟ فقد كان يخطط ان يدخل ويخرج دون جلبة. ظل الخط يركض حول السور وهو يسمع صوت الغفر يركضون في اتجاه البوابة الرئيسية والذين كان عددهم كبير لسبب ما! ظل الخُط يركض إلى أن وصل إلى الجهة المقابلة للسرايا. وصل لباب حديدي صغير مفتوح. نزل من على الحصان وانحنى ليدخل من الباب بينما دخل الحصان بسلاسة. يمشي على ممر الأنترلوك تحت أشجار البونسيانا التي تغني عليها العصافير لا تفرق كثراً عن الأوبرا الخاصة بفونوغراف اليوم التالي. في مرمى بصره نافورة متوسطة الحجم خلفها مباشرةً السرايا. تجلس على سور النافورة الصغيرة زوجة التاجر. مرتدية فستان سواريه أبيض مفتوح من منطقه الصدر. صدرٌ ليس بكبير أو صغير بل مناسبٌ مستديرٌ مَلْبن. دائماً تشعر انهما مبتهجان منتظرين لمن يمسكهما، دائماً تشعر انهما ينظران إليك. وعلى رأسها قبعة يتدلى منها شبكة على نصف وجهها العلوي، ممسكةً في يداها اليمنى قفازان أبيضان طويلان.

تداعب بيدها اليسرى حصاناً يصعب من كثرة الزينة التي عليه أن يُرى لونه الأبيض. شعرت السيدة بوجود الخُط فالتفتت. تباطأت خطوات الخُط مع زيادة ضربات قلبه. عدل عمته وفرك شاربه بعدها استوعب انه كان قرار خاطئ إذ اصبعه متسخ ببعض عين الغفير. وعلى بُعد بضعة أمتار لاحظ الخُط عيناها الحور الكحيلة. اختفى قلبه إلى حيث لا يعلم. وقدمه تمشي نحوها بتلقائية وفقد الشعور بكل ما حوله كما لو أن كل عضو في جسمه أصبح مستقلاً بذاته إلى أن وجد نفسه واقفاً أمامها. بعد بضعة ثواني عاجزاً عن الكلام وقفت على السور وقامت بتقبيله قبلة زُلزل بها قلبه وَنسى على إثرها اسمه. تحول ذلك الليث إلى قِطة أمام قُبلتها، كان الملكً عرشه عظامٌ وجماجمُ الأن صار عبداً مكلٌ أمام عينها. وبعد الانتهاء من القبلة ابتسمت وقالت: «أنا بقول تغسل ايدك عشان الفستان ابيض.»

-«انتي عاملة حسابك على واحد تاني؟»قالها وهو يمد يده في النافورة.

-«لا.» مبتسمة

-«يا خسارة كان نفسي أقطعه.»

-«الجايات أكتر من الرايحات.»

وضع يده على مؤخرتها ساحباً اياها، لاصقاً جسمها بجسمه حتى أحست بعضلات بطنه وبصدره، حتى أحس بنهدها.

-«هو أنا بشوفك غير مرة كل أسبوع.» قال الخط بين وابلٌ من القبلات.

-«هانت اهي.» ردت بين القبلات.

جلس الخُط على السور وجلست الفتاة عليه.

وبين قبلة ومسكة وهرسة قال الخُط: «ايه بقى الحاجة المهمة اللي تخليكي تجيبيني على غفلة كدا؟ وإيه هو السبب اللي خلاكي تختاري سرايا العمدة؟»

-«دا انت جيت في الوقت المناسب. لو كنت جيت بدري شوية كان زمانهم قفشوك.»

-«محدش يقدر.»

-«لا يجدع. انت محظوظ.»

-«لي؟»

-« الاتنين اللي كانوا حارسين الباب اللي كانوا هنا جريوا عشان واحد نده عليهم.»

-«لي؟»

-«قال عشان سمع واحد بيصوت. بيصوت على إيه مش عارفة لي؟»

-«انت أي اللي خلاكي تختاري المكان ده يعني؟»

-«في حاجة مهمة عايزة أقولهالك.»

-«طب متقولي.»

-«العمدة عازم التاجر والشيخ بكرة.»

توقف الخُط ونظر لها مصدوماً: «إزاي؟ وعرفتي منين؟! وهيتجمعو لي؟!»

-"أنا عمري قلتلك حاجة غلط؟"

-"لا. بس هيجمعهم لي؟"

-"انت مش من أول ما عرفتك وانت نفسك تقتل التلاتة دول."

-"مش التلاتة. أنا مش عايز اقتل التاجر والشيخ وجوده مزعلنيش في حاجة."

-"نعم يا أخويا. هو انت ناوي تسيبني للتاجر ولا ايه؟" قالتها بعصبية.

-"وطي صوتك."

-"أنا زهقت. أنا عمالة أمثل كل يوم إني هبله، إني واقعة في دباديبه وإني مدلوقة عليه. أنا بغصب نفسي أنام معاه مرة أو اتنين في الشهر عشان أجيبلك المعلومات اللي انت عايزها....."

اسكتها الخُط بقبلة كاد أن يصل فيها لسانه للسان مزمارها قبل أن يقول: "أنا أسف. أنا هفشخه مش هقتله."

-"أنا هستناك بعد ما تقتلهم قدام السرايا. عشان نهرب."

وعادا للقبلات.

قال الخُط: "مقلتيش بقى هيتقابلو لي؟ ولي اختارتي المكان ده؟"

-"سيبني أنا اشرحلك." صاح شيخ الغفر الذي كان واقفاً خلف إحدى الأشجار بعيداً عنهم حوالي أربعين متراً.

بسرعة شديدة دفع الخُط حبيبته من على حجره ووضعها خلفه وأخرج من تحت عباءته بندقية صغيرة.

-"إيه دا هي كانت البندقية، أنا كنت بحسبها حاجة تانية خالص."

رفع شيخ الغفر يديه مستسلماً وقال: "أنا بقول بلاش. أصل العدد مش لصالحك."

رفع الخُط حاجبية وقال: "إزاي يا جدع!"

ظل يخرج من خلف الشجر عشرون غفيراً. سمع خلفه شبابيك السرايا تفتح، التفت لها ليجد في كل شباك غفير أو اثنان مع العلم أن عدد الشبابيك كان أكثر من مائة. كما يأتي من كل جانب من السرايا ما يقارب الخمسين غفير. كل هؤلاء معهم بنادق، ليجد الخُط نفسه مُحاصرٌ بجيشٍ من الغفر. ولا يمكنه فعل أي شيء.

-"صدقني أنا عملت كدا عشانك انت." قالتها حبيبته بعين مليئة الدموع.

بسرعة شديدة وضع الخُط البندقية على كتفه ثم التفت لها ووضع يده حول عنقها وعصّر فيه أمام أعين الجميع.

-"أنا...أنا...أنا هموت بسبب حُرمة." صاح الخُط

لاحظ الخُط أن الغفر الواقفين خلف رأسها من الجهة اليسرى للسرايا يفسحون الطريق ليظهر العمدة. يمشي أعرجاً متكئاً على عصاته النفيسة، وعلى كتفه بندقية فضية مزخرفة بالذهب.

-"أنا بقول تسيبها." صاح العمدة ليسمعه.

-"على جثتي." صاح الخُط.

-"أنا متأكد إن ده فعلاً اللي هيحصل لو مسبتهاش."

بدأت المسكينة بضرب الخُط على صدره بما قد يكون آخر ما لها من قوة.

-"صدقني أنا لو عايزك ميت كان زمانك ميت. بس أنا عايزك في موضوع مهم."

بينما تحترق رئتا الفتاة المسكينة، بدأت تشوش رؤيتها أو بمعنى آخر بدأت بالموت. وبينما بدأت تفقد الشعور بأطرافها كما بدأت بفقد الشعور بحواسها، رأت شخص يقف خلف الخُط. لم يكن من البشر فكان وجهه عريض كما كانت أسنانه مدببة كالقرش وله ابتسامة كبيرة وكان يرتدي على رأسه وشاح أسود انغمست فيه باقي ملامحه غير قرنان طويلان جداً طول الواحد منهما متراً أو يزيد. كما استتر معظم جسده في الخُط فلم تستطع تمييز طوله، وبينما هي تموت كان الخُط يفكر، فعلا لمَر ليسَ ميتاً؟ وإذا كانت زوجة التاجر تعمل لدى العمدة لمَر لمْ تقل له مكانه في الجبل بسهولة بدلا من كل هذه الجلبة؟ قام الخُط بترك الفتاة لتقع على الأرض ملتقطةً أنفاسها بين الكحّة الشديدة باحثة عن هذا الكائن المخيف الذي كان يقف خلف الخُط لكنه كان قد اختفى فجأة كما جاء فجأة.

-"متيجي نتمشى شويه عايزك في كلمتين." صاح العُمدة.

مشي الخُط في اتجاهه. وبعد خطوتين صاح له العمدة: "ارمي البندقية."

وقف الخُط وألقى البندقية التي كانت على كتفه وبعد خطوتين ثانيتين.

-"واللي في جيبك." صاح العمدة.

-"مش معايا حاجة." رد الخُط.

ظل العُمدة واقفاً مبتسماً للحظات. ثم قام برفع العصا الثمينة فقام جيش الغفر بتعمير بنادقهم مصدرين أصوات طار على أثرها الطيور من الأشجار. ظلت أصوات البنادق ما يقارب العشر ثواني عمداً فقد أمرهم العمدة ألا يعمروا بنادقهم في نفس اللحظة ظناً بذلك أنه قد يدُب الخوف في قلب الخُط.

ظل العمدة واقفاً رافعاً يده لما يقارب العشر ثواني.

-"أنا لو نزلت إيدي قبل ما إنت تطلع أيّاً كان اللي معاك صدقني مش هسيب على لحمك جلد ولا على عضمك لحم." صاح العمدة

-"طب ما أنا مش معايا حاجة فعلاً." رد التاجر صائحاً.

رفع العمدة أكتافه كأنه يقول "كما تشاء" وظل واقفاً مبتسماً لمدة عشر ثواني حتى استسلم الخُط وأخرج الخُط من جيبه مسدس فضي متوسط الحجم منقوش على جانبه الأيمن نجمه ذهبية وقبل أن يلقيه على الأرض نظر شيخ الغفر للمسدس بإعجاب.

-"ممكن أخده يا عمي." صاح شيخ الغفر بينما العمدة ينزل يده.

نظر العمدة الخُط لشيخ الغفر نظرة استتفاه -من التفاهة-.

-"اه." صاح العمدة لكن بداخله كان ينظر لابن أخيه نفس نظرة الاستتفاه.

التقط الفتى المسدس وأمسكه بإعجاب. يمشي الخُط بين الغفر، ينظرون له كما تنظر له البنادق المرفوعة عليه. يرمي نظرات تكاد تفر بها البنادق من الأيادي.

نظرات تخشع لها قلوب الغفر. يكاد القريبون منه أن يسمعوا صرخات كل الرجال والنساء والأطفال الذي ماتوا بسببه، الذين ماتوا أمام تلك النظرة. حين وصل للعمدة ربط العمدة على كتفه.

-"أنا عارف إنت بتفكر في إيه. إنت بتقول في سرك "أنا ممكن أمسكه واتحاما فيه ومحدش من الغفر هيفكر حتى إنه يضرب عيار." صح؟ بس صدقني إنت محتاج تسمع اللي هقوله."

حينها وصل شيخ الغفر وهو يلتقط أنفاسه. هز الخُط رأسه موافقاً على ما قاله العمدة، فالتف العمدة للجميع.

-"استنوني هنا."

-"إزاي يا عمي ان...."

نظر له العمدة لابن أخيه بحزم فصمت. مشى العمدة بعيداً عنهم وأشار للخُط أن يلحقه.

-"لو عندك أسئلة اسألها. عشان بعد ما تخلص عايزك تركز في كل حاجة هقولهالك."

-"هي شغالة معاك بقالها قد ايه؟" قالها وكادت أن تنزل دمعة من عينه.

-"من وهي عندها عشر سنين."

-"طب لي ممسكتنيش من زمان؟"

-"مين قالك إني عايز أمسكك؟"

-"إزاي انت كل أسبوعين كنت بتبعت غفر يمسكوني وطبعاً"

"كلهم كانوا بيعملوا جرايم مكنتش عايز أعرِضها للقضاء. زي خنصرة من فلوس أنا بعملها من ورا المملكة أو مثلاً عرفوا حاجة مكنش المفروض يعرفوها وغير كدا كتير."

-"عشان كدا كنت بتخليها تقولي عن الوقت والمكان اللي هيجولي فيه؟"

-"في أسئلة تانية؟"

-"لي دلوقت؟"

-"التاجر ناوي يسيبني ويمشي."

-"مستحيل. هو اللي قالك؟"

-"لا هي اللي قالتلي. صحصح معايا شوية."

توقف الخُط عن المشي فوقف معه العمدة.

-"هي ليه بتعمل كدا لي؟"

-"دين عليها. مقابل إنها تبقى أغنى واحدة في الصعيد عن طريق انها تتجوز أغنى واحد في المملكة كلها. أغنى واحد بعد الملك طبعاً."

-"وانا كنت سداد الدين." قالها وقد غرغرت عينه دمعاً.

-"هي حبتك بجد على فكرة." قالها العمدة مبتسماً. ثم أشار له ليستمرا في المشي.

-"التاجر عايز يسيبك ويمشي. وبعدين؟"

-"والشيخ ديماً معتقد إني عايز اضره. فدا عاملي سمعة وحشة عند الملك. دا غير إنه عرف من يومين عن خطوط الحشيش. وهيسافر يوم الجمعة اللي جاية القاهرة."

-"ودي عرفتها منين؟"

-"انا عرفت أخلي ابنه يشرب حشيش. صحيح هي كانت مرّة واحدة وتاب بعدها. بس بالنسبه لابن الشيخ الموت أهون من إن أبوه يعرف عن المرّة دي."

-"طب وانت هتضر الشيخ؟"

-"الشيخ؟ غالباً. أنا هضره في حالة تضارب المصالح بس."

-"ماشي أنا مال أمي. انت عايزني اقتلهم يعني؟"

-"لا. خالص. الشيخ عرف حوار الحشيش دا من حوالي يومين. كان ممكن يبعت جواب لإن حاجة زي كدا عمره كمان هيستنى عليها دا غير إن دي مش أول مرة يعرف حاجة وسخة أنا بعملها وميقولش لشيخ الأزهر...."

-"يا جدع!"

-"الشيخ عارف اني كنت بعتك كذا مرة تقتل مصريين على أساس إن الإنجليز هم

اللي قتلوهم. ولما عرف جالي وقالي ان دا حرام وقالي معملش كدا تاني. قولتله طب ولو عملت كدا تاني هتعمل أي؟"

-"قالك ايه؟"

-"ضحك وقالي "هاجي وأقولك إن دا حرام ومتعملش كدا تاني.""

-"مممممم."

-"أما التاجر فهو مع إنه خلاص رايح يقابل السمسار لكنه متردد في شرا المينا. لأنه مش واثق انه هيعرف يثبت نفسه برا الصعيد. هنا هو عارف الناس عايزة إيه. انت فاهمني؟"

-"من الأخر طالما انت مش عايز تقتلهم أنا مش هعرف أفيدك بحاجة."

-"أنا عايزك تخوفهم عشان أعرف نواياهم."

استغرب الخُط من غرابة ما يسمعه.

-"متبصليش كدا. أنا عمر ما هعمل كدا غير لما أكون مضطّر. صدقني أنا حاولت كل حاجة. من ساعة ما بقى ليا أنا والتاجر كلمة على الإنجليز وانا وهو بُعاد عن بعض جداً بعد ما كنّا أقرب صحاب. وإحنا طلعنا في وقت من أصعب الأوقات اللي عدت على الصعيد. أنا وهو واحدة واحدة قدرنا نقلب الآية على الإنجليز. على فكرة أنا حاولت أقرب منه تاني بس منجحتش. وحاولت أرشي الشيخ، حاولت إني أهدده بحياته ومفيش برضوا فايدة. أنا حتى حاولت اتفاهم معاهم وأشرحلهم إن إحنا التلاته ملناش غير بعض. مينفعش حد فينا يتصرف

لوحده أو إن حد فينا يمشي. وبرضه مفيش فايدة."

-"يعني عايزني أعمل إيه يعني؟"

-"أنا هجمعهم بكرة،

وهكون مقلل عدد الغفر عشان تعرف تتسحب هه تتسحب أنا مش عايز حد يموت أنا مش عايز الملك يشم خبر بحاجة. وهتتسحب من الباب اللي انت لسا داخل منه. أنا هسيبهولك مفتوح. هخلى الغفر اللي عليه يحرسوا البوابة الرئيسية. أنا عايزك تيجي من غير ما تأذي أي حد من الغفر. ومن غير ما تلمس التاجر أو الشيخ. هما في الأخر ناس كويسة. وأنا مش عايز حد يكون زعلان مني بعد اللي هيحصل بكرة. وفي نفس الوقت مش عايز أكبر في دماغ الناس حوارك. عشان ساعتها هيقولوا انك خطر كبير ولازم نخلص منك وأنا محتاجك طبعاً سواء مع الغفر أو لو الإنجليز حاولوا يرجعوا تاني."

دارى الخُط ضحكة استخفاف

-"أنا بتكلم بجد. أنا مش عايز حد يتأذي. الغفر ملهاش ذنب في اللي بيحصل بيني أنا والتاجر والشيخ." أكمل العمدة

-"سيبها على الله." قال الخُط

-"أنا عايزك تهددهم بإنك تموتهم. وبعد كدا تخيرهم انك تسيبهم يعيشوا مقابل انهم يعترفوا بنواياهم."

-"طب دي اعملها إزاي دي؟"

-"اتصرف بقى."

-"طب لما أخلي كل واحد بطريقة سحرية يقول اللي هو عايز يعمله وراك. أعمل ايه في الخاين؟"

-"مش هتعمل حاجة. أنا هتصرف من هنا."

أقترب الخُط منه وقال مبتسماً: "أنا عندي حل أحسن. أنا هتحامى فيك وأخطفك. أجبرك إنك تعمل اللي أنا عايزه. أهو بدل وجع الدماغ ده كله."

-"بص كدا وراك."

نظر الخُط خلفه ليجد ما يقارب المائة وخمسين غفيراً ببنادقهم موجهة مباشرةً عليهما.

-"إنت عايز تفهمني انك أمرتهم إنهم يطخوني وانت معايا حتى لو دا هيقتلك؟" قال الخُط وقد رُسمت على وجهه ابتسامة ثقة متبوعة بقهقهة بسيطة لسخافة الفكرة إذ يظن أنه لوى ذراع العمدة. بينما العمدة ينظر له مبتسماً. ظلت ابتسامة العمدة على شفتيه حتى تلاشت ابتسامة الخُط بعد ان تذكر أن جنون عظمته وكبريائه فعلاً قد يصلا به لهذه الدرجة. فعلاً الموت أهون على العمدة من أن تلوى ذراعه، حتى وإن كان موته على يد نفسه.

-"متخلى حد من الغفر يعمل كدا.انت لازم تقرفني أنا يعني."

-"مستحيل حد يعملها غيرك."

-"طب وبعد ما الكلام ده يخلص. وأنا في السرايا...."

-"هترجع على الجبل زي ما كنت. هربان تقتل اللي أنا عايزه يموت سواء إنجليز أو من الغفر. هتنزل من على الجبل وقت ما أنا أحب. وتفضل عايش طول ما أنا عايزك عايش وتقاب...."

امسكه الخُط من قميصه رافعاً اياه من على الأرض. قائلاً: «اسمع كويس أنا المرة اللي فاتت جبتها في رجلك وسيبتك تعيش المرة دي أُقسم بالله العلى العظيم...»

-«أنا بقول تبص وراك تاني.»

نظر ليجد الغفر قد تركوا فجوة ليرى الخُط شيخ الغفر يقف بجوار زوجة التاجر، موجهاً مسدسه الضخم لرأسها. أنزل الخُط العمدة ببطء.

-«وهتقابلها وقت مانا أعوز. اعدلّي القميص اللي اتبهدل والطربوش اللي مال.»

اتسعت عين الخُط من جرائه العمدة. وظل صامتاً بلا كلام لبضعة لحظات. رفع العمدة يده اليمنى التي فيها العصى. قام ابن أخيه بتعمير المسدس. سمع الخُط صوته. ونظر لها ليجد العين التي لا طالما كان عبداً لها تبكي. فقام بهندمة القميص أمام الغفر المذهولين. متى تم ترويض هذا الأسد. متى ركع هذا الملك. ولا أحد سوى العمدة يعلم انه تم ترويضه من قِبَل عينين كحيلتين.

-«يعني أنا هطلع من المولد بلا حمص.» قال الخُط

-«عليك نور. هتطلع من المولد بلا حمص.»

-«طب أنا ههرب دلوقت إزاي؟» قالها مع وصولهم لنهاية للسرايا.

أشار العمدة لليمين -الناحية الأخرى للسرايا- حيث توجد الجنينة.

-«شايف شجرة اللمون دي.»

أماء له الخُط إيجاباً.

-"إفضل اجري مشرق لحد ما توصل للسور هتلاقي باب مفتوحلك."

-"أطلع أجري على طول كدا؟"

-"لا. خد البندقية اللي على كتفي واضرب عيار في الهوا على أساس انك عايزها تيجي فيا. واطلع اجري."

-"يعني الغفر مش هيضربوني؟"

-"لا أنا مأكد عليهم محدش هيضرب غير لما أقول."

أخذ الخُط البندقية من كتف العُمدة وفتحها ليجد فيها طلقة واحدة أخرجها ووضعها في جيبه الأيمن.

-"دا ليه دا؟"

-"مين عارف. يمكن أحتاجها في وقت زنقة."

بعد صمتٍ دام للحظات قال الخُط: "طب بعد ما أخلص أنا عايزها تطلع من طوعك، وتسيبها تيجي معايا الجبل."

-"أنا قلت انك هتشوفها لما أنا أعوز."

-"أنا كل يوم بندم إن الطلقة جت في رجلك مش في دماغك."

ربط العمدة على كتفه وقال: "لما تضرب الملك اتأكد إنك قتلته."

سرعان ما انتهى العمدة من قوله ضربه الخُط بمؤخرة البندقية على جبهته

مصيباً بها أعلى حاجبه الأيمن، وركض حيث أمره العمدة.

الفصل السادس

مَنْ تبقى؟

بينما يمتزج صوت الأوبرا مع خوار الثور الواقع على الأرض ممسكاً بما تبقى مع صوت صويت المرأة المصابة على فخذها والتي استندت على كرسي العمدة فظهرت في النور القادم من الباب. كانت زوجة التاجر. كل هذه الأصوات مع صوت صراخ العمدة الذي يتقلب ألماً في الكرسي من يده التي قطعت مع صوت الأذان الخافت الذي لم ينتبه له أحد. بدأ الخُط بإزاحة النجفة من عليه. بعدها بدأ بالاعتدال وبينما هو يعتدل أصدرت معدة العمدة أصوات غريبة ثم تقيء عليه العمدة فجأة. إذ كان الخُط واقعاً أمامه. رأت زوجة التاجر القيء الممزوج بدم خصيتي حبيبها تقلبت معدتها ثم قامت بوضع يدها على فمها لكن خانتها معدتها وقامت هي الأُخرى بالقيء على الخُط. وطبعاً بعد استحمامه بالقيئ ظلت تتقلب معدته لبضع لحظات محاولاً أن يمسك نفسه عن القيء لكن عصته معدته. علم الخُط أنه على وشك القيء لا محاله حينها نظر للشيخ الجالس بعين متسعة محاولاً استيعاب ما يحصل.

-"يا ابن الوس..." قالها الخُط قبل أن يقاطِع نَفْسهُ بقيئه.

بعد مرور لحظات هدأت فيها صرخات الألم والقيئ، حاول الخُط الاعتدال فنظر له كل من في الغرفة لكنه لم يستطع. بحث العمدة بعينه عن المسدس الذي وقع منه لكنه لم يجده في عتمة الغرفة وحتى لو رأه يحتاج ليد ليمسكه. نظر كل الحاضرين لزوجة التاجر التي بدأت بالعرق وشحب وجهها ودارت رأسها كل هذا نتيجة لنزيف قدمها. لكن سرعان ما استوعبت أنها الوحيدة القادرة على فعل أي شيء. أخذت عصا العمدة النفيسة التي كانت مسنودة على الكرسي جانبها. استندت عليها لتصل للخُط وأخذت منه البندقية.

-"اقتليه يا حبيبتي." قال لها التاجر بصوت يرتجف خوفاً مليئاً بالدم نتيجة لضربات الخُط.

التفتت له ببطء.

-"اقتليه وتعالي نروح وأخلص من ميتين دا يوم." أكمل التاجر.

-"أنا زهقت منك. ومن عيشتك الزفت." قالت زوجته.

نظرت للخُط بعين نزل منها دمعٌ أسودّ من الكحل. مت للخط الذي ظنها تقترب لتطمأن عليه لكنها في الحقيقة كانت تقترب لتأخذ البندقية من جانبه. ثم توجهت للتاجر مرة أخرى.

-"حتى لو متبقاش منه غير صباع واحد هيفضل أحسن منك." صاحت في زوجها وهي تقترب منه ببطء متكأه على عصا العمدة وتجر البندقية على الأرض من ثقلها محدثةً صوتً خاف منه التاجر.

-"إنت متعرفش دا عمل إيه عشاني؟" هنا بدأت الفتاة المسكينة بالبكاء.

-"إنت متعرفش دا قتل كام واحد عشان ينقذني." هنا وقفت أمامه وقد اختل توازنها قليلاً بسبب الدوار.

أكملت: "إنت أحقر واحد عرفته. بتحسب نفسك تعرف كل حاجة. إنت طول عمرك معتبرني زي الساعة بتاعتك. مش معتبرني من البشر."

وقامت برفع البندقية بصعوبة في وجه التاجر وبالتحديد أمام عينه التي اتسعت من هول ما تسمع. ارتبك التاجر محاولاً أن يبحث عن تفسير لما تفعله أو أن يفهم شيئاً مما تقوله

-"استهدي بالله." قال لها الشيخ.

-"انت لسة دورك جاي." ردت السيدة.

عادت للتاجر: "الراجل دا الوحيد اللي شافني على حقيقتي وشوفته على حقيقته."

نظر لها المسكين المتألم الواقع على الأرض.

-"ورغم كل اللي عمله هو أحسن واحد في الأوضة دي.".

بينما يعلو صوت الطبول الصادرة من الفونوغراف نظرت للعمدة صائحةً: "عمره ما خبى حاجة هو بيعملها عشان كان خايف إن الناس تقف قصاده. أو عمل حاجة غصب عنه. هو أكتر شخص حر قابلته في حياتي. على عكسي تماماً."

ثم نظرت للتاجر وقالت صائحة: "بس لما أنا اتحطيت في خطر وكان في ايده ينقذني قرر إنه يتنازل، كان ممكن إنه يهرب، كان ممكن إنه ميجيش انهاردة. لكنه قرر إنه يحارب عشاني. قرر إنه يقف قدام أقوى الناس في الصعيد بحالها. مش زيك، مش عارفة إذا كنت هكمل معاه لآخر الشههههر."

خرجت آخر كلمه بثقل شديد من فمها. ثم التفتت للشيخ.

أكملت: "عمره ما وهم الناس انهم يفرقوا معاه أو كدب عليهم وفهمهم إنه تهمه مصلحتهم. عمره ما قال للناس تعمل حاجة وعمل عكسها. عمره ما كان جبان انه يقول الحقيقة."

أشار الشيخ على نفسه وسئل: "أنا؟"

إذ هذه الصفة فعلاً ليست فيه. بل هي كذبة كذبتها على نفسها حتى تقنع نفسها أنها أحسن منه.

وبينما كان انتباه الكل منجذباً إلى حبيبة الخُط الحاملة للبندقية وكلامها للشيخ، لمح التاجر في الظلام رجل يبعد بضعة أمتار عن يمين العمدة. رجل يقف في الظلام خُيّلَ التاجر للحظة أنه تمثال أو شبح. ركّز التاجر قدر ما يقدر إذ يمكن بصعوبة أن يراه ليجد أنه رجلٌ يضحك ضحكة عالية مخيفة لا صوت لها، والتي أظهرت أسنانه المدببة كما لو كانت أسنان قرش ولسان ضخم مدبب ووجهه المفلطح كبير. وبتمعن أكتر لاحظ قرونه الطويلة جداً والتي يكاد يصل طولها لنص طول هذا الكائن. تقلبت ملامح وجهه استغراباً وتقلبت معدته اشمئزازاً. وبدون أي مقدمات رُفعت البندقية في وجه التاجر الذي صُعِق بالبندقية صائحاً: «لاااااا.»

ثم قامت السيدة بدعس الزناد. قامت حبيبة الخُط بتفجير النصف العلوي للتاجر محدثةً بالبندقية صوت كاد أن يتوقف به قلب الشيخ والعمدة. بينما دفعها ارتداد البندقية لتتعرقل في الخُط الذي كان أمام التاجر مباشرة ثم وقعت على حطام الطاولة التي كانوا يشربون عليها الشاي. وبينما الخُط لازال على الأرض متألماً قامت بصعوبة مستندة بعصا العمدة.

تعالت أنفاس الشيخ بصورة كبيرة وهو يرى التاجر وهو يفارق الحياة. متسعةً عيناه فكل ما يعرفه عن الموت ليس أكثر من قصص قرأها في كتب أو حكايات سمعها من مشايخ قبله. هذه هي أول مرة يرى فيها الموت بهذه الصورة البشعة. ولا زالت أنفاسه تتعالى هامساً «لا إله إلا الله.» مع كل زفير. حتى قاطعه العمدة من الظلمات صائحاً في تلك السيدة: «بطلوا تضحكوا على نفسكوا بقى.»

-«قصدك أي؟» سئلت حبيبة الخُط.

قال العمدة بصوت هادئ:

«هو كان ممكن يهرب في أي وقت حتى بعد ما أنا كلمته. كان ممكن يخدك ويهرب. أنا سبته يهرب. هو مكنش في حاجة تمنعه من الهرب.»

-«انت عايز تقول أي؟» قالتها بغضب شديد.

-«أنا مخلقتش الخَّط. مش أنا الي عملت منه وحش. هو طول عمره كان وحش. أنا بس استخدمته.»

أحمر وجه حبيبة الخُط غضباً بينما يكمل العمدة: «وأنتِ. أنتِ أي اللي جابك هنا؟ بتعملي أي في الأوضة دي؟ انت كان ممكن تهربي في أي لحظة. كان ممكن تمشي في أي وقت. في أسوأ حاله اللي هي أن كل اللي فالأوضة دي يموتوا كان زمانك واخده فلوس التاجر كلها. ولا انت مكنش مكفيكي فلوس التاجر اللي مش بتخلص. أنا مش مسؤول عنكوا. أنا مش السبب.»

قالت الفتاة: «زي ما أنا قلت من شوية. خليك للآخر.»

ثم التفتت للشيخ: «انت بقى.»

بصعوبة ابتلع الشيخ ريقه.

-«انت اللي لما جيت والدنيا قامت ومقعدتش.»قالتها وهي تقترب منه ببطء.

ثم أكمل صائحة: «إنت اللي ناطط في كل حاجة. تقول حلال وحرام. إنت اللي تقرر إيه اللي الناس عيزاه وإيه اللي الناس مش عيزاه. إنت اللي شجعت الناس إنها تكره الخُط بعد ما كان بطل. أنا اتجوزت التاجر بسببك. أنا..... أنا .... أنا دايخة.»

قالتها ثم سقطت على الأرض مغماً عليها.

ولكن بينما هي تسقط على الأرض وقبل أن تفقد الوعي تماماً رأت خيالاً ميزته من أسنانه المدببة وقرنيه أنه نفس الكائن الذي وجدته أمس. نفس الشيطان الذي رأه التاجر واقفاً خلف الشيخ. كان يضحك بشدة لكن لا يصدر منه أي صوت. سقطت زوجة التاجر على بُعد متران ونصف من الشيخ، وأربع أمتار من الخُط الملقى على ظهره.

-"خُد البندقية." صاح العمدة للشيخ.

استوعب كلاهما ما يحدث. استوعب كل منهما أن أول من سيصل للبندقية هو الرابح. حاول الشيخ الوصول للبندقية لكنها كانت على بُعد خمس أشبار بعد أن مد جسمه بالكامل. وفي نفس الوقت حاول الخُط الوقوف لكن بلا جدوى من شده الألم فبدأ الزحف للبندقية تاركاً خلفه بركة دم ساحباً بعضه معه.

-"بسرعة." صاح العمدة من الظلام.

فقام الشيخ بالالتفاف وبدأ في سحب الكرسي الذي بالكاد يتحرك بسبب وزنه الثقيل محدثاً مع كل حركة صغيرة صوت صرير مزعج. وبينما الخُط كان على بُعد متران. حاول الشيخ مد يده ليجد أنه لازال على بعد ثلاث أشبار. عاد لسحب الكرسي بكل قطرةً من قوته. ظل يحاول السحب حتى ظهرت عروق رقبته، حتى احمر وجهه، حتى كاد أن يكسر عظم يديه. فتزحزح مقدار شبرين ثم التفت ليجد الخُط وصل لجسد الفتاه الساقطة أرضاً. يمد الخُط يده للبندقة التي كانت على بُعد بضع ميليمترات شهق الشيخ بعد أن علم أن الخُط هو من سيصل لها أولاً. هدأت موسيقى الفونوغراف ولم يبقى سوي عزف البيانو. شعر الشيخ أن الزمن قد تباطأ، نظر الشيخ للتاجر الذي طار مخه خلفه.

نظر لفمه المتدلي ورأسه التي لم يبقى له منها سوى أنفه وما تحتها. هكذا هو مصيره بعد بضعة ثواني. هكذا سيكون جسدي. بدأ الشيخ في تخيل ابنه وهو يغسله وهو بلا رأس.

-"مد رجلك." صاح العمدة بأعلى صوت ممكن في نفس الوقت الذي علت موسيقى الأوبرا من جديد.

لحظتها اعتدل الشيخ محاولاً سحبها بقدمه إذ وبالتأكيد جسده بعد مد قدمه أطول بكثير من طول يده وحدها. دفع الشيخ يد الخُط التي كانت وصلت بالفعل للبندقية بإصبعيه الوسطى والسبابة، لكن نزعها منه كان سهلاً. ثم جلس الشيخ بسرعة على الكرسي حتى يتملّك البندقية ففي النهاية إحدى يداه مقيدة في الكرسي. بينما يزحف الخُط بأسرع ما يمكن لكي يصل قبل أن يعمرها الشيخ ويصوب. تفاجئ الشيخ من وزنها الثقيل لكنها لم تكن مشكلة، وحاول مرتين سريعتين أن يعمرها كان الخُط قد وصل وقدمي الشيخ المتفاجئ بصعوبة الأمر فقد يبدو سهلاً لكنه ليس كذلك. مدّ الخُط يده ممسك بطرف البندقية لكن كان الشيخ قد قام بتعميرها ووجهها لوجهه.

هدئت موسيقى الأوبرا تماماً وتباطأ الزمن، لكن هذه المرة للخُط. قام الخُط بإغماض عينه بعد أن علم أنه لن يفتحها مرة أخرى. راضياً بنهايته، متقبلاً للهزيمة وإن كانت غير عادلة. تذكر كل تلك النظرات المرعوبة. كل الرجال والنساء والأطفال الذي ماتوا على يديه أو بسببه. تذكر كل الأطفال الذين صاروا على يديه أيتاماً. تذكر كل النساء اللاتي صاروا بسببه أرامل. ثم تذكر حبيبته ذات العين الحور الكحيلة. توقف تفكيره هنا. وقرر أن تكون هي أخر ما يأتي في باله.

قام الشيخ بدعس الزناد مُغمضاً عينه. لكنه سمع من البندقية صوت ضعيف غير الثلاثة الذين سمعهم منها قبل. فتح الشيخ عينه ليجد وجه الخُط لا يزال كما هو بدون فقد رأس أو عين أو أنف. تفاجئ الشيخ والعمدة الذين اتسعت أعينهم. فقام الشيخ بدعس الزناد مرة أُخرى ولكن لازال الصوت ضعيف ووجه الخُط كما هو مغمضاً عينه لكن تغيرت ملامحه وبدأت تصدر منه صوت قهقهة. ضغط الشيخ على الزناد مرة ثالثة. فتح الخُط عينه في نفس الوقت الذي هاجت فيه موسيقى الأوبرا ضحك الخُط بعد ان رُدت له الروح، ودفع البندقية التي كان ممسكاً بطرفها بشدة في وجه الشيخ وتحديداً في أنفه التي نزفت بعد تلك الضربة التي كادت أن تفقده الوعي، ثم سحب الخُط البندقية من يده ثم أمسكه منها قائلاً: «كان معايا تلت طلقات. واحدة في ايد التاجر وواحدة في راسه وواحده في النجفة.» قالها الخُط ضاحكاً.

قام الخُط بسحب الشيخ من على الكرسي للأرض ليتملكه. أوقفته يد الشيخ المقيدة في الكرسي فقام بسحبه بشدة كاسراً ساعده فقام الشيخ بالصراخ قبل أن يجعله الخُط يبتلعها عن طريق وضع البندقية على حلقه خانقاً اياه ضاغطاً عليه. ثم اعتدل عن طريق الجلوس على صدر الشيخ ليتملكه أكثر وتعتلي وجهه ابتسامة. ضغط بشدة حتى كاد جلد رقبته أن يلمس فقارات عنقه. حتى كاد أن يكسر عظم رقبته. مانعاً الهواء من الدخول أو الخروج. بدأت عروقه بالبروز بشدة محاولةً إيصال الدم لمخه. حاول الشيخ دفع البندقية عن رقبته لكن طبعاً بلا جدوى. هنا انتهى مخزون جسمه من الهواء وبدأ بالشعور بحرقة في رئتيه. وبدأ بضرب الخُط على وجهه الذي كان ينظر له ولا يرمش له جفن. فهو يشعر بمتعه رهيبة في قتل الشيخ لم يشعر بها من قبل. بدأ الشيخ بتحريك قدمه بصورة عشوائية (يرفس). كما بدأ ذاك الكائن الشيطاني بالظهور للشيخ.

واقفاً خلفه لكن هذه المرة لم يكن ضاحكاً أو حتى مبتسم. كان فقط واقفاً خلف الخُط ناظراً باستغراب. فقد الشيخ الشعور بأطرافه. وبدأت صورة وجه الخُط وذاك الكائن الناظرين له تصبح أغمق وأغمق. تدريجياً ارتخت يده وتدريجياً هدأت أقدامه، تدريجياً يبست عضلاته، انغمست عروقه تدريجياً، وتدريجياً وقف الدم فيه عن السريان.

ظل الخُط ضاغطاً عليه حتى بعد أن تأكد أن الشيخ قد فارق الحياة. وظل ناظراً لوجهه بغيظ شديد بعد أن كان ينظر له بمتعة شديدة، إذ كان الشيخ مبتسماً. ويزيد الطين بلّه موسيقى الفونوغراف التي كانت أعلى من أي وقت مر. ظل الخُط جالساً على الشيخ الميت المبتسم. شاعراً أن الشيخ يستهزأ حتى بعد موته. لكن لا. لن يترك وجهه هكذا. بعد لحظات رفع الخُط البندقية من على رقبة الشيخ وقد تركت أثراً واضحاً على رقبته. ورفع كلتا يديه ممسكاً بالبندقية كأنها سيف بحيث كانت مؤخرتها تمثل نصل السيف. وضرب جثة الشيخ في منتصف وجهه فكسر أنفه. ومع الثانية التي جاءت في عينه كسر جزئاً من جمجمته محدثة صوتا كاد قلب العمدة أن يقف بسببه. فالثالثة فالرابعة فالخامسة اللواتي جئن في فكه المبتسم الذي انكسر ودخل لداخل جمجمته. وظل يضربه حتى تكسرت عظام وجهه بالكامل. لم يتوقف الخُط بل ظل يضرب حتى لم بيق على عظم وجهه أي جلد. ضرباته على وجه الشيخ كانت تزلزل الغرفة وكانت تهتز لها الزجاج. لم يتوقف ظل يضربه حتى تكسرت عظامه كاشفاً مخه وباقي أجزاء وجهه الداخلي. بينما العمدة غير قادر على الكلام أو الفعل أو حتى التفكير. لم يتوقف ظل يضرب حتى كسر عظم رأسه الخلفي. ظل يضرب

حتى سمع صوت ضرب خشب الأرضية.

توقف الخُط ملتقطاً أنفاسه بعد أن شوّه صورة الشيخ وتوقفت معه الموسيقى تماماً فقد انتهت الأسطوانة تاركة صوت شوشرة خافت. وببطء شديد التفت للعمدة الجالس أمامه خارج حدود الضوء القادم من خارج الغرفة. نظر له وإن كان لا يراه فهو يرى في الظلمات نظرة رعب كما يشم رائحة الخوف تخرج من مسام جلده. رعب وجوده وحده مع هذا الكائن هذا الوحش هذا الشيطان الموجود معه في الغرفة. أخرج الخُط من جيبه الأيمن طلقة. تلك الطلقة التي كانت في البندقية حين أعطاها له العمدة في اليوم السابق. اتسعت عين العمدة التي استوعبت ما هو قادم. توقف عقله عن التفكير. استوعب أن مصيره كباقي الجثث. استوعب أنه سيموت على يد وحش صنعه بنفسه. وحش ما كان أن يولد لولاه. هو الذي حول الطين الذي ولد منه طفل صغير لنار فيصبح شيطان يمشي بين البشر. شيطان اسمه الخُط.

هذه النهاية؟

أخذ الخُط عصا العمدة من جانب الفتاة المسكينة التي ستموت قريباً من النزيف. واستند عليها واقفاً على جسد الشيخ ومشى عليها متجها للعمدة. ناظراً له نظرة تصيح بهول ما هو قادم. مرّ من أمام التاجر الذي أصبح لونه أبيض. ومع أن الخُط أيضاً ينزف لكنه خلاف حبيبته هو لن يموت من النزيف. لا يفرق معه كمية الدماء التي يفقدها. لا يفرق معه الألم الذي هو فيه. لن يستريح سوى بعد قتل ذاك الرجل. وبعد أن وصل أمام العمدة مباشرة. كان الخُط واقف في النور بينما العمدة استتر في الظلمات لكن كلاً منهما يرى الآخر بوضوح. قام العمدة بالاعتدال بحيث يوجه نفسه للخُط.

قام الخُط بتعمير البندقية محدثاً ذاك الصوت اللعين.

حينها سمع كلاهما أصوات كثيرة تركض في اتجاه الغرفة. ليدخل شيخ الغفر من باب الغرفة. يوجه الخُط البندقية على شيخ الغفر ثم يدخل خلفه غفيرين حاملين بنادقهم على أكتافهم وفي أيديهم مشاعل تنير الغرفة شيئاً. بدأ الخُط في إعادة حساباته من سيضرب أولاً هل سيكون شيخ الغفر ثم سيتحامى في العمدة. أم سيضرب أحد الغفر ثم يتحامى في العمدة أم لن يضرب أحد ويتحامى في العمدة. وبعد ثلاث ثواني فوجئ الخُط بانكسار النافذة المجاورة وبدأ بالقفز منها بعض الرجال بعضهم بمشاعل وبعضهم ببنادق لينيروا بعض الأجزاء من الغرفة كاشفين بعض ملامح العمدة. لم يكن الذين دخلوا من النوافذ من الغفر بل كانوا عاديين. وجّه لهم الخَّط البندقية ولا يزالون يدخلون وأعدادهم تزيد. كُسرت باقي النوافذ وظل يدخل منها عدد كبير جداً من البشر حتى أُضيئت الغرفة كاملةً. نعم كانت الصعيد كلها في الخارج. كلهم اجتمعوا في السرايا في الجنينة وحتى بعضهم كانوا يمشون في مياه النافورة من كثرة العدد. تعالت الصياحات من نوع "مسكناه", "اثبت مكانك", "والله ووقعت يا خُط", "متسيبهوش يهرب" وأخرى من نوع "الحمد لله" و"الله أكبر". ثم يوجه الخُط البندقية لوجه العمدة ليُسكت الناس كلها.

-"مستحيل." صاح الخُط بغضب شديد بينما تتعالى أنفاسه. فهذه هي أول مرة يخاف الموت. أول مرة يتم حصاره فيها ولا يرى مخرجاً.

-"أنا بقى هقولك إزاي." قال شيخ الغفر مخرجاً من جيبه ورقة. تلك الورقة التي كتبها الشيخ لابنه. قالها بينما كان الصعايده لا يزالون يدخلون من النوافذ وبعضهم من الباب.

-"الشيخ مكتبش على الرسالة دي اسم ابنه. كان مكتوب عليها اسمي أنا. لما خرجت من أوضة السفرة وشفت اسمي عليها وقفت لحظة على ما استوعب

وبعد كدا كملت مشي عادي وانا بفتحها. ولقيت مكتوب فيها التالي."

فتح شيخ الغفر الورقة ليقرأها على الخُط بينما تغني مغنية الأوبرا أغنية حزينة.

-"الخُط مش بيعرف يقرأ عشان كدا عرفت اكتب اللي انا هكتبهولك. أنا عايزك تروح لابني وتوريه الرسالة. هو يعرف يميز خطي عشان يتأكد إن الكلام ده مني أنا. والسبب اللي خلاني أكتبها باسمك هو إن أنا متأكد إن ابني صعب جداً عليه انه يتحرك من غيرك. انتوا الاتنين مع بعض اللي هتعرفوا تنقذونا. أنا عايزك تخليه يجمع الناس. مش عارف إزاي ممكن يلحق يجمع العدد المناسب بس أنا واثق إنه هيلاقي طريقة. وانت اللي هتقود الناس عشان الخُط ميهربش. لو الناس دخلوا بصورة عشوائية ساعتها الخُط هيعرف يهرب. دا إن مقتلش الناس كلها. وفي حالة انكوا ملحقتوش توصلوا في الوقت المناسب فانا عايز أقول التالي لابني "لو كانت صلاة المغرب آخر صلاة أصليها معاك. فعايزك تعرف إني هفارق الدنيا وأنا مش ندمان على أي حاجة. أنا عملت معاصي كتيرة وكبيرة بس انا واثق إن رحمة ربنا أكبر وأكتر. عايزك تعرف إني عارف موضوع الحشيش. أنا عايزك تفهم حاجة. لازم يكون لكل واحد فينا ذنب مهما كان الشخص دا ملتزم. لازم يكون ليك ذنب كبير عشان تدعي ربنا بالرحمة والمغفرة. إياك إياك إياك تيأس من رحمة ربنا. اوعى تستصغرها. وإياك إياك إياك إياك تستغلها أو تاخدها سبب عشان تعمل معصية. وأنا وإن كنت مقصر في حق ربنا فأنا تحت رحمة أرحم الأرحمين. ومعايا شفاعة أشرف الخلق والمرسلين.... أنا طول عمري بحبك. والخلافات اللي بيني وبينك كانت بسبب اختلاف وجهات النظر وعمرها ما كانت بسبب كره أو محاولة مني إني أطلعك غلطان. ولو مسمحتليش الفرصة أقولها. فأنا هكتبها دلوقت "اشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمدٌ عبده ورسوله.""

أعاد شيخ الغفر الورقة لجيبه وقال:

"الباقي بقى أنا هحكيهولك. لما وصلت لابنه ووريته الرسالة سألني "انتوا جمعتوا كام واحد؟". قولتله "خمسة غير إني مش معايا غير أربعة غفر. الناس مش مصدقاني وحتى لو أنا عديت عليهم واحد واحد بنفسي مش هنلحق نجمع العدد اللي نقدر نهزم بيه الخُط. الناس نايمة ولو ندينا على الميكروفون بتاع الجامع بصوتك محدش هيفهم لأن تقريباً سبعين في المائة من اللي في الصعيد أجانب. أنا مش عارف أعمل ايه. رد وقال "طبعاً مستحيل تقول لغة الناس كلها تفهمها. ومستحيل تقول اسم الناس كلها ترد. ومستحيل تقول صفة تكون موجودة في الناس كلها. مفيش حاجة ممكن تقولها تلاقي الناس كلها بتستجيب... غير صوت الأذان." بعدها راح أذن في الناس بعد صلاة العشا بكتير وبعد كدا الناس اتجمعت. مش كلها بس تقريباً النص أو أكتر. طبعاً كانوا فيهم ناس مش مسلمين ولا حتى عرب، لكن كلهم استغربوا الأذان السادس وقرروا انهم يتجمعوا. وقدرنا نجمع المسيحيين واليهود الموجودين لأنهم صدقونا لما لقوا عددنا كبير. وأنا عرفتهم يدخلوا منين ويجيبوا معاهم أي ويتحركوا إزاي عشان متهربش."

خرج من خلف شيخ الغفر فتى في الثانية عشر من عمره. نظر لوالده الذي لم يميزه إلا من سبحته المعدنية وقال بعين تفيض دمعاً وحزناً: "

كلُ من ولِدَ قد مات..... فليس في الموت صدمة

ويطرق باب الحياة بأجل... لا أنتظر من الله الرجعة

فلا أنعِ لله فراق أبي... أحمد الله وأدعو له بالرحمة."

-"الموضوع خلاص خلص." قال شيخ الغفر.

ارتخت يد الخُط وتعالت أنفاسه بعد أن علم أنها نهايته. لا مفرّ هذه المرة. نزلت البندقية تدريجياً من أمام وجه العُمدة بعد أن استوعب أنها النهاية. بعد أن علم أنه قد خسر. بعد أن وجهت عليه مئات البنادق. رأى الخُط خلف الكرسي الذي كان يجلس عليه العمدة رجلاً ذو أسنان مدببة كأسماك القرش يضحك بهستيرية وانتشاء، تعطي طريقة ضحكته شديدة أنه يضحك بصوت عالي لكن الخُط كان لا يسمع له صوت كما لو أنه فيديو لا صوت له. له قرنان طويلان جداً. لم يكن الخُط خائفاً منه ولا مشمئزاً كان ينظر له بخيبة أمل وإحباط بينما تتعالى أنفاسه. كما شعر العمدة بشعور غريب. ذاك الشعور اللي تحسه إذا وقف شخص خلفك. كما شعر باشمئزاز رهيب. وتقلبت معدته خاصة بعد أن شم ريحاً نتنه. وبينما يدير العمدة رأسه ليرى من يقف خلفه. ليرى مصدر هذا الشعور.

قال شيخ الغفر: «والله ووقعت يا خُط.»

نظر له الخُط وقبل أن يصل بصر العمدة للكائن الذي خلفه وعلى غفلة منه وبسرعة أعاد الخُط البندقية لوجه العمدة وأطلق النار. ثم انهالت طلقات أهالي الصعيد.

القاكم في مينا

كم لديك من السطور الجميلة التى اخذت
منك الكثير من المجهود و الاعتناء
لكى تكون افضل ما يمكن
لكى تعبر بها عن شعور داخلى
لم تستطيع ان تشاركه مع احد غيرك
مهما كانت سطورك
قصص .. روايات .. اشعار .. مقالات
باللغة
العربية او الإنجليزية او الفرنسية

تواصل معنا لتشارك سطورك مع العالم